قدّاس

من أجل فلاح أسباني

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

رامون خ. سيندر

ترجمة عاصم الباشا

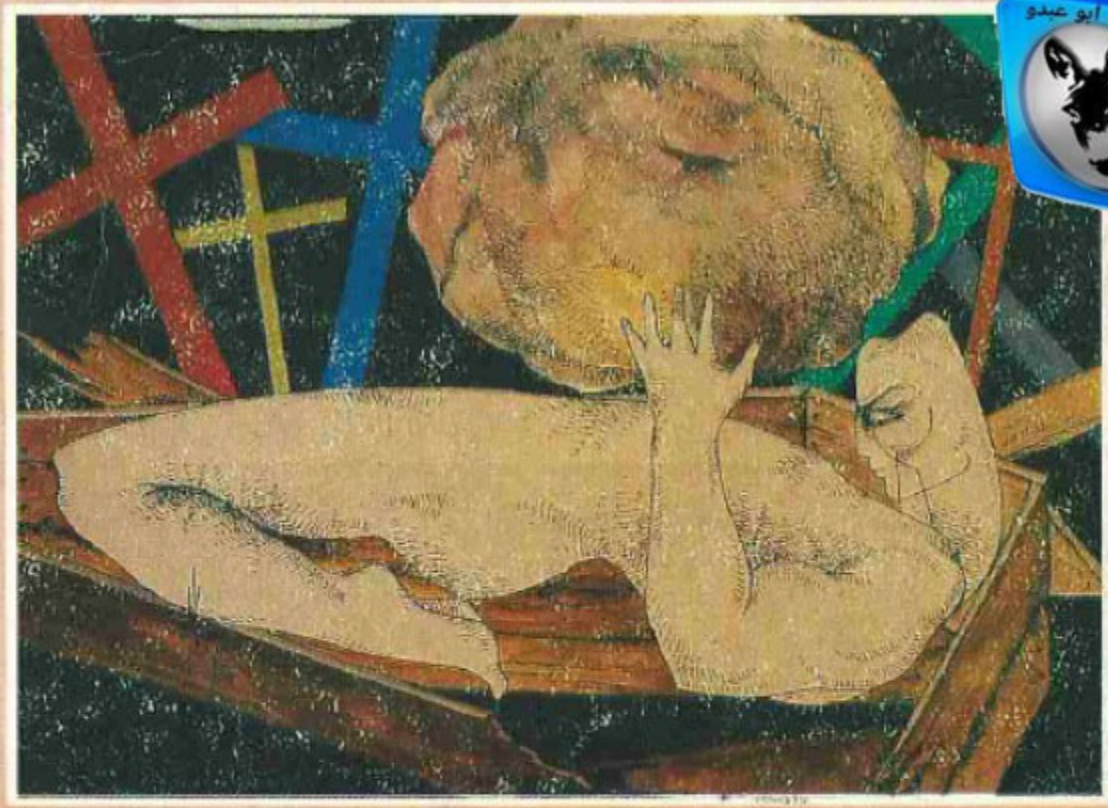

مدونة أبو عبدو

الأهالي

رواية

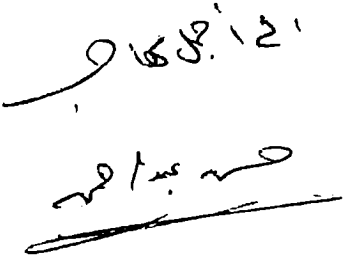

قدّاس من أجل فلاح اسباني

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأولى ١١/٨٧/٣٠٠٠

صورة الغلاف للفنان فراس البصري

الأهالي
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق هاتف: ٤٢٠٢٩٩ ص.ب ٩٥٠٣ تلكس ٤١٢٤١٦

قدّاس
من أجل خلاص اسباني

رامون خ. سيندر

عن الاسبانية: عاصم الباشا

العنوان الأصلي للكتاب

RÉQUIEM
POR UN
CAMPESINO
ESPAÑOL

-RAMÓN J. SENDER-

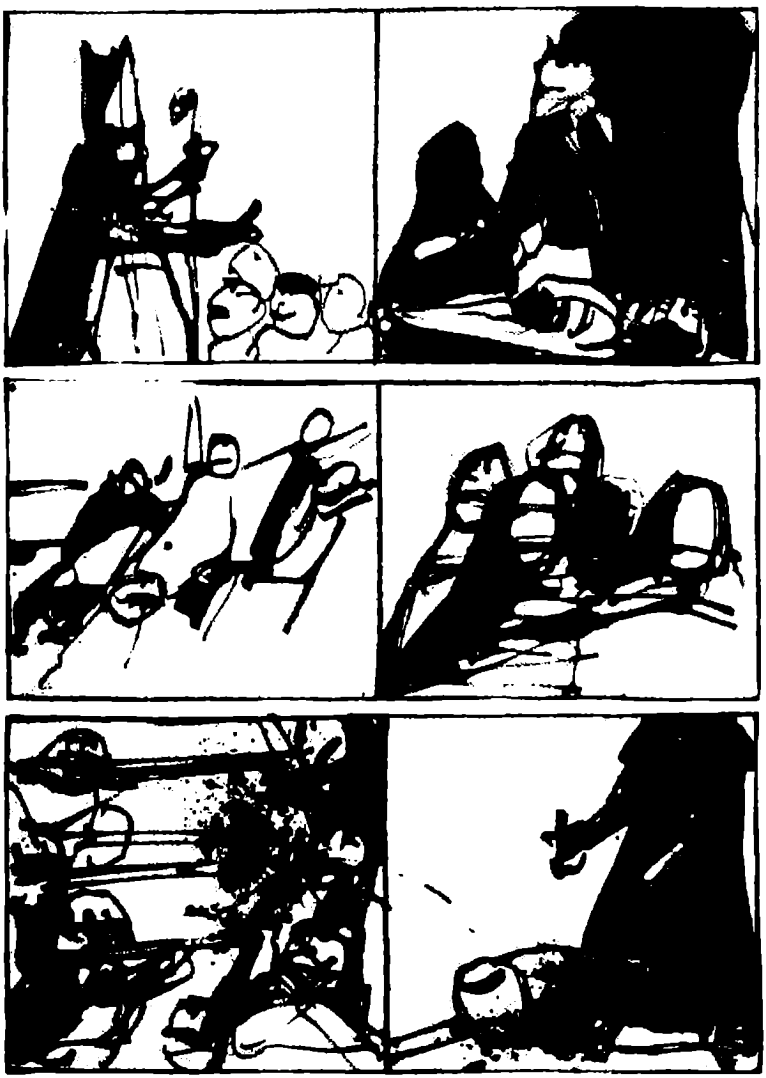

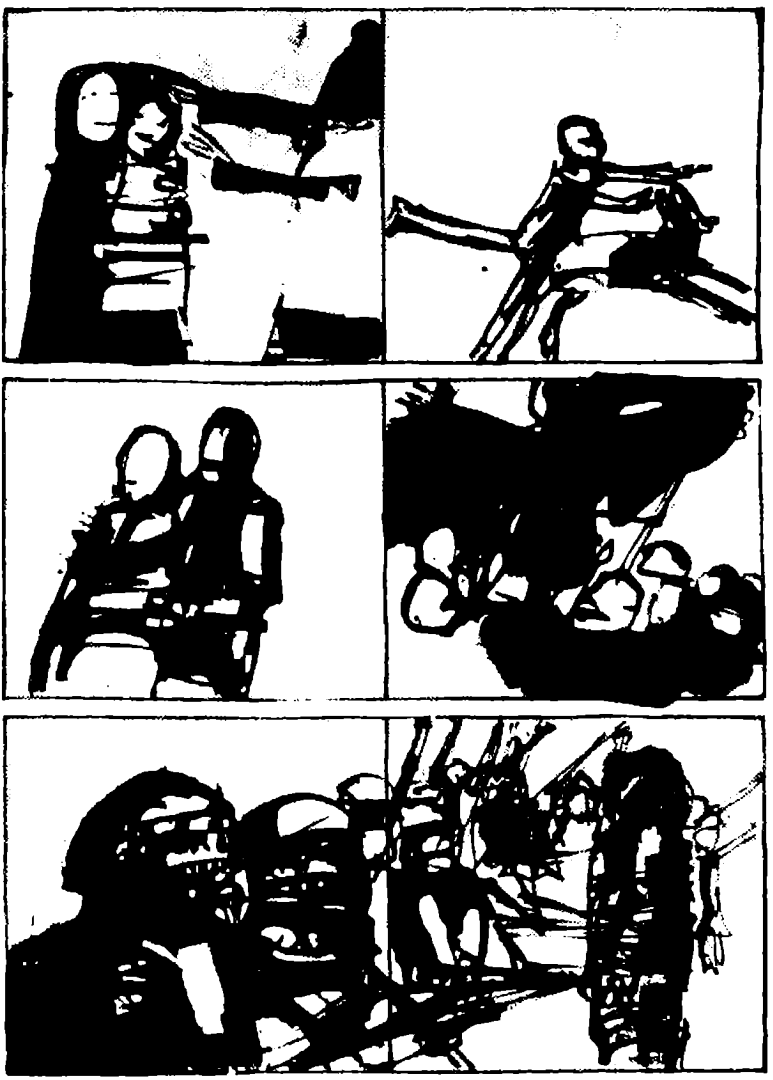

ينتظر الكاهن في مقعده وقد احنى رأسه فوق حلّة قداس الجناز. رائحة البخور تتضوع من الكنيسة، وفي ركن منها باقة من اغصان الزيتون بقيت هناك منذ «أحد الشعانين». كانت الأوراق جدّ يابسة فبدت معدنية، وموسين ميليان يتجنب الاحتكاك بها إذ يحاذيها كيلا تقتلع وتتساقط على الأرض.

القندلفت يروح ويجيء بثوبه الأبيض.

لمنزل الكاهن نافذتان تطلان على الحقل الصغير وقف المعبد. وتصل من خلل الزجاج همهمة طفيفة.

ثمة من يكنّس الأرض بحمية فينبعث صوت المكنسة الجافة لدى احتكاكها بالبلاط الحجري. وصوت ينادي:

ـ ماريا.. ماريتا..

بالقرب من النافذة المشّرعة قليلاً جرادة حبيسة تحاول الإفلات من بين سيقان نبتة فتهتز يائسة. ومن بعيد، من الساحة، يصل الأسماع صهيل حصان. فكر موسين* ميليان: «لا ريب إنه حصان باكو الطاحوني الذي يمضي كعادته شريداً في القرية»، وتابع الخوري مفكراً بأن ذلك الحصان الطليق هو بمثابة تذكير دائم بباكو وبذكرى مأساته.

متكئاً بمرفقيه على سواعد المقعد وقد تصالبت يداه فوق حلة القداس السوداء المطرزة بالذهب، تابع صلاته.

---

* ـ موسين: لقب يطلق على رجال الدين والنبلاء في منطقة أراغون ـ م ـ.

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

إن إحدى وخمسين سنة من تكرار للصلوات أسبغت عليه قدرة آلية تتيح له الشرود بأفكاره في جهات أخر بينما يؤدي طقس الصلاة. وخياله الآن شارد في القرية. إنه يخطر قدوم أهل الميت. إنه واثق من مجيئهم، فالأمر يتعلق بجناز لروح فقيدهم، هذا وعلى الرغم من أنه سيتلوه دونما طلب من أحد. ويتوقع موسين ميليان حضور أصدقاء الفقيد كذلك، وإن اعتوره شك بذلك. فالقرية بأجمعها، على وجه التقريب، تكن لباكو حباً وصداقة، عدا الأسرتين الأكثر ثراء: دون فاليريانو ودون غوميرسيندو. أما العائلة الغنية الثالثة: آل كاستولو، فما كانت تصادقه أو تعاديه.

دخل القندلفت وأخذ من الركن جرساً ماسكاً المطرقة تفاديا للرنين، وكان يتجه خارجاً عندما سأله موسين ميليان:

ـ أما حضر الأقرباء؟

ـ أي أقرباء؟ ـ سأل بدوره القندلفت.

ـ **لاتتحامق**. ألا تذكر باكو الطاحوني؟

ـ آه، أجل ياسيدي. لكن أحداً لم يحضر بعد إلى الكنيسة.

وخرج الطفل مفكراً بباكو الطاحوني. وكيف لا يذكره وقد رآه يموت؟ وابدع الناس بعد مقتله قصيدة يحفظ بعض مقاطعها:

هوذا باكو الطاحوني
المحكوم بالإعدام
يمضي منتحباً
في درب المقبرة.

قصة البكاء ليست أمينة، فالقندلفت شاهد باكو وما كان هذا يبتحب.

«رأيته ـ حدّث الصبي نفسه ـ برفقة الآخرين من مكمني في عربة السيد كاستولو، وكنت أحمل الكيس الذي احتوى أدوات مسحة المرضى ليقوم موسين ميليان بدهن أقدام الموتى بزيت المسوح».

يروح القندلفت ويجيء مدندناً القصيدة، وكيّف من حيث لا يدري وقع أقدامه مع إيقاع الأنشودة:

وعندما وصلوا جدران الطين

أمر القائد بالتوقف.

يخيّل للصبي أن قصة «القائد» على علاقة بالاسبوع المقدس وبخطوات الصلاة الريفية.

من خلال نوافذ مسكنه وصلت الكاهن رائحة أعشاب محترقة ذكّرته بشبابه. انه الآن عجوز ـ كذا يحدث نفسه ـ وقد قارب العمر الذي يفقد فيه الملح مذاقه كما جاء في الانجيل. إنه يصلي وقد اتكأ برأسه على تلك البقعة من الجدار التي تلطخت بفعل الزمن.

سأل الخوري مرة اخرى:

ـ أما من أحد في الكنيسة؟

ـ لا، سيدي.

فيخاطب ذاته: ما زال الوقت باكراً، ثم إن الفلاحين لم يفرغوا بعد من أعمال الدرس. لكن عائلة الفقيد لن تتغيب.

ما زالت الأجراس تقرع بطيئة في إيقاعها الجنائزي، قرع متباعد وحاد.

مدّد موسين ميليان ساقيه فظهرا رأسا حذائيه من تحت ثوبه التي اهترأت أطرافه، وقد تشقق جلد الحذاء حيث يطوى لدى المسير. فكر الخوري: آن أوان ارساله للتصليح. إن الحذاء حديث العهد بالقرية، وما كان السابق يحضر الصلاة في الكنيسة لكنه كان يعمل للخوري بتؤدة وأناة ويحسم له من قيمة الأجرة. كان ذلك الحذّاء وباكو الطاحوني صديقان حميمان.

وتذكر موسين ميليان يوم عُمّد باكو في الكنيسة ذاتها. طلع صباح التعميد بارداً وذهبياً، وحصيات النهر التي فرشت في الساحة من أجل عيد القربان تئن تحت وقع الأقدام. كان الطفل بين ذراعي الأشبينة مدثراً بثوب ثمين، ومغطى

بلحاف أبيض مطرز بحرير أبيض. إن الفلاحين يخصون المراسم المقدسة بالفاخر من ثيابهم.

لحظة دخول موكب التعميد الكنيسة قرعت الأجراس الصغيرة بغبطة، وبالأمكان معرفة ما إذا كان الوليد طفلاً أو طفلة من رنينها، ففي حال الذكر يقرع الجرس الأول قرعاً مديداً ويقصّر الثاني: «ليست طفلة ـ إنه طفل.. ليست طفلة ـ إنه طفل» وفي حال تعميد الأنثى يتبدّل القرع بخفة: «ليس طفلاً ـ بل هي طفلة.. ليس طفلاً ـ بل هي طفلة». ولقرب القرية من حدود ليريدا يستخدم الفلاحون كلمات كاتالونية.

ارتفعت ضجة الأطفال في الساحة جرى العادة لدى وصول الموكب. والإشبين يحمل كيساً ورقياً يسحب منه قبضات من الحلوى والسكاكر. كان يدرك أن إحجامه عن توزيعها سيدفع الأطفال إلى استقبال الموكب بهتافات يطلقونها بفتور، وقد ينوهون إلى قماط الوليد وما إذا كان جافاً أو مبتلاً.

سمع ارتطام السكاكر على الأبواب والنوافذ، وعلى رؤوس الأطفال أحياناً، لكنهم ما أضاعوا الوقت بالشكوى والتذمر.

ما زالت الأجراس الصغيرة تقرع في البرج: «ليست طفلة ـ انه طفل..» والفلاحون يدخلون الكنيسة حيث ينتظر موسين ميليان مرتدياً ثوب التعميد.

يتذكر الكاهن ذلك العماد من بين المئات، فهو عماد باكو الطاخوني. كان بين الحضور أناس يرتدون ثياب الحداد، ملامحهم جادة. نساء توشحن بشالات أو وشائح سوداء رجال قمصانهم منشاة. وحوض التعميد يوحي بغوامض تليدة.

دعي موسين ميليان لتناول الطعام مع العائلة. لم تحدث مبالغات لأن احتفالات الشتاء أقل لغطاً من الاحتفالات الصيفية. يذكر موسين ميليان فوق الطاولة باقة شموع مجدولة ومزينة، وفي الطرف الآخر من الحجرة مهد الوليد والأم قربه، صغيرة الرأس، وافرة الصدر، تنمّ عنها الرزانة السحرية الخاصة بالمنجبات.

كان الوالد يرعى الأصدقاء عندما اقترب احدهم من المهد وسأل:

ـ أهو ابنك؟

أجاب الوالد بشيء من السخرية لتفاهة السؤال:

ـ لا أعرف، لكنني واثق، على الأقل، من أنه ابن زوجتي.

ثم أطلق قهقهته. رفع موسين ميليان رأسه قاطعاً التسبيح وقال:

ـ هيا، لا تكن اخرق. ما نفع مزاح كهذا؟

والنساء يضحكن أيضاً، وبخاصة خيرونيما، القابلة والمجبّرة التي حملت لحظتها للأم مرقة الدجاج وكأساً من نبيذ الموسكاتيل، ثم كشفت عن الطفل وراحت تبدّل ضماد الصرّة.

ـ هيا، هيا أيها الشاب. من المؤكد انك لن تطرد من الرقص. مشيرة إلى حجم أعضاء الذكر التناسلية.

كانت الأشبينة تردّد كيف أخرج الطفل لسانه في العماد ليلتقط الملح، فتستنتج خيرونيما من ذلك أنه سيكون لطيفاً وسيحظى بجاذبية حيال النساء.

يتحرك الوالد جيئة وذهاباً ويتوقف حيناً ليتفحص الوليد، ويقول:

ـ ما أعجب الحياة، فحتى لحظة ميلاده ما كنت سوى ابن والدي، وانا الآن، اضافة إلى ذلك، والد ابني.

ـ العالم مكوّر، ويدور. ـ قال أحدهم بصوت عال.

كان موسين ميليان واثقاً من أنهم سيقدمون طبق الحجل المكمور مع الصلص. فقد اعتادت الدار ذلك. وعندما اشتم رائحته نهض واقترب من المهد، أخرج كتاب قداس جد صغير وأودعه تحت وسادة الطفل.

كان يرمق الطفل دون أن ينقطع عن الصلاة: ad perpetuam rei me-moriam..*. وكأن الطفل أدرك أنه محط أنظار الحفل، فابتسم في نومه. ابتعد الكاهن مفكراً: «لأي شيء يبتسم»؟

* ـ «ويدوم ذكره إلى الابد..» ـ م ـ

قالها بصوت عال، فعلّقت خيرونيما:

ـ إنه يحلم. يحلم بانهار من لبين حار.

بدا تصغير اللبن غريباً. لكن كل ما تنطق به خيرونيما هو كذلك.

بدأت الوليمة مع وصول المتأخرين. احتل الوالد السعيد رأس الطاولة من جانب، وأُوعزت الجدة للخوري بالجلوس في الجهة المقابلة:

ـ وهنا، موسين ميليان، الأب الآخر.

وافق الكاهن موضحاً:

ـ ولد الطفل مرتين. جاء في الأولى إلى العالم، وفي الثانية إلى الكنيسة. ووالده في الثانية هو الخوري.

تعمد موسين ميليان الاقتصاد في تناول الموجود في انتظار الحجل. وبعد ست وعشرين سنة ما برح يذكر تلك الطيور، فتحتويه رائحة الثوم، الخلّ وزيت الزيتون، تأتيه الآن، قبل القداس، ولما يتناول طعام الإفطار بعد، مرتدياً ملابسه ومنصتاً للأجراس.

خبت الذكريات لوهلة. التفت نحو القندلفت. ما كان هذا يحفظ عن ظهر قلب قصيدة باكو كاملة، فجمد عند الباب وقد اعوج إصبعه بين صفّي أسنانه في محاولة منه للتذكّر:

هاهم يأخذونه، هاهم يأخذونه

ذراعه موثوقة بالأخرى.

يحضر الصبي المشهد، لقد كان دامياً وكثير الفرقعات.

وعاد الكاهن لذكرى حقل العماد بينما لفظ الصبي لمجرد القول:

ـ لا أدري ماذا يحدث اليوم يا موسين ميليان، فما من أحد يأتي إلى الكنيسة.

كان الكاهن قد دلق الزيت المقدس على قذال باكو، القذال الطري الذي

شكّل ثنيتين أعلى الظهر. «الآن ـ فكّر ـ ذلك القحف قابع في أعماق الأرض، رميم بين رميم».

في ذلك الصباح تأمل الحشد المتواجد الطفل الوليد، وبخاصة والداه، تغمرهما السعادة وارتباك طفيف بان على محياهما، فليس ثمة ما هو أكثر غموضاً من الوليد.

موسين ميليان يتذكر جيداً تلك العائلة، ويعلم أنها لم تكن في يوم من الأيام شديدة التديّن، لكنها كانت تؤدي واجباتها تجاه الخورية وثابرت على تقديم الهبتين للكنيسة كل عام، الأولى عبارة عن كمية من الصوف والثانية بعض الحنطة في شهر آب. جال في خلد موسين ميليان حقيقة انهم يقدمون ذلك من قبيل التقليد وليس الورع، لكنهم يؤدون الواجب آخر الأمر.

فيما يتعلق بخيرونيما فقد كانت توقن أن الخوري لا يحفظ لها الكثير من الود، لأنها تعكّر مياه البلدة الراكدة بمهنتها او ثرثرتها ـ أو صلياتها، كما تسميها هي ـ. ومن عادتها تلاوة صلوات غريبة لمنع تساقط البَرَد وتفادي الفيضانات، وهي تنهي تلك التلاوة بعبارة: «أيها القديس العادل، القديس الخالد، القديس القادر، احمنا سيدي من كل شر». تقولها بلاتينية وقعها شبيه بالبذاءة ويعجز الكاهن عن فك حروفها. كانت تلفظها ببراءة وما إن يسألها الخوري عن مصدر تلك «اللاتينجية» حتى تجيبه أنها ورثتها من جدتها.

إنه واثق من ايجاده تعويذة ما إذا تفحص سرير الطفل ورفع عنه المخدة، فقد اعتادت خيرونيما إيداع مقص مفتوح كالصليب في حال الذكور لتصونهم من الجراح الناتجة عن الحديد ـ «عن حقد الحديد»، تقول ـ أما في حال الإناث فوردة تجففها بنفسها على ضوء القمر لتمنحهن الجمال وتخلّصهن من آلام الطمث الصعب.

وكان أن حدث مابعث في نفس الكاهن سروراً مضمراً، فقد جاء طبيب البلدة الشاب، ألقى التحية ونزع نظارتيه ليمسح عنهما غشاوة البخار، ثم اقترب

من السرير، وبعد ان عاين الوليد اتجه نحو خيرونيما جاد السيماء ليعنفها ويطالبها ألاّ تمسّ بعد اليوم صرّة الطفل ولو كان لمجرد تغيير الضماد. قالها بجفاء، والأسوأ من ذلك: أمام الجميع، فقد وصل مقاله أسماع من كان في المطبخ. وكان هو متوقع ما ان غادر الطبيب المكان حتى انفلتت خيرونيما تنفّس عن ذاتها، قالت إنه ما حدث أن اصطدمت مع الاطباء القدماء، وان ذلك الفتى يعتقد ان علمه وحده هو الصحيح، و«قل لي ما تدّعيه أقل لك ما ينقصك»، وأنه يتمتع بالهيئة والأسلوب ويفتقد الضمير. حاولت تحريض الأزواج عليه: «أما رأيتم كيف يدخل البيوت على هواه؟ دون أن يقرع الباب، ويمضي مباشرة إلى المخدع حتى ولو كانت الأنثى بصدد ارتداء ثيابها؟ لقد فاجأ العديدات بملابسهن الداخلية، وماذا يفعلن تلكن البائسات؟ لا شيء، يصرخن ويهرعن إلى حجرة أخرى.

«أتلك طريقة يدخل فيها أعزب لا ظهير له بيوت الناس؟ هذا هو الطبيب». وتابعت خيرونيما حديثها، لكن الرجال ما أعاروها انتباهاً، فتدخّل موسين ميليان قائلاً:

ـ اصمتي يا خيرونيما. فالطبيب طبيب آخر الأمر.

قال أحدهم:

ـ ليس الذنب ذنب خيرونيما وانما ذنب ابريق الخمرة.

تجاذب الفلاحون اطراف الحديث حول أعمالهم. لقد نما القمح بشكل حسن، وبدأت تنبت الخضروات في المشاتل، وسيكون ممتعاً في الربيع بذر الخس والبطيخ الأصفر.

وما أن لاحظ موسين ميليان ان الحديث بدأ ينقشع حتى بادر منتقداً الخرافات، فانصتت خيرونيما صامتة.

كان يمتلك قدرة التحدث عن أدق الأمور بلغة الفلاحين المحدودة. قال ان الكنيسة سعيدة بتلك الولادة كما أهل الوليد، وانه لا بد من إبعاد الطفل عن

الخرافات فهي رجس من عمل الشيطان، وقد تسبب له أذى في المستقبل. واشار إلى انه من المحتمل أن يكون الطفل شاؤولاً جديداً للمسيحية.

قال الوالد:

ـ ما أريده أنا هو أن يتعلم ربط سرواله الداخلي وأن يجيد شغل الأرض.

قهقهت خيرونيما نكاية بالكاهن ثم قالت:

ـ سيصير الطفل ما يجب أن يكون. أي شيء عدا الخورنة.

نظر موسين ميليان اليها مستهجناً:

ـ كم أنت طائشة يا خيرونيما.

وصل في تلك اللحظة من يبحث عن القابلة، ومع خروجها تقدم موسين ميليان من المهد، رفع الوسادة ووجد تحتها مسماراً ومفتاحاً صغيراً متصالبين. اخذهما وقدمهما للوالد قائلاً:

ـ أرأيت؟

ثم تلا صلاة. وكرر إن باكو الصغير هو ابنه الروحي حتى ولو غدا فلاحاً ويتوجب عليه حماية روحه. إنه مدرك ان خرافات خيرونيما ما كانت لتسيء، كما أنها لا تنفع.

بعد ذلك بكثير، بعدما صار باكيتو* باكو، وبعدما أنهى خدمة العلم، وبعدما مات، وعندما ينوي موسين ميليان تلاوة قداس الجناز لروحه، ما زالت خيرونيما على قيد الحياة، عجوزاً متفوهة بالحماقات لا يأبه لها أحد.

الصبي القندلفت واقف عند باب الخوريّة ويطل بانفه بين الحين والآخر مسترقاً النظر إلى الكنيسة ليقول للكاهن:

ـ لم يأت أحد بعد.

فيرفع الكاهن حاجبيه مفكراً: إنني لا أفهم، فكل القرية أحبّت باكو، عدا

---

* تصغير لباكو ـ م ـ

دون غومير سيندو ودون فاليريانو، وربما السيد كاستولو بيريث. ومن يتأكد على وجه الدقة من مشاعر هذا الأخير؟

بينما يحدث الصبي نفسه بدوره مردداً قصيدة باكو:

تمضي الأضواء في الجبل

والظلال في . .

أطبق موسين ميليان عينيه وتابع الانتظار. إنه يذكر تفاصيل أخرى من طفولة باكو. إنه أحب الصبي، وأحبه الطفل كذلك، فالأطفال والحيوانات يحبون من يكنّ لهم الود.

كان «يفركها» في السادسة من عمره، أي كان يهرب من داره ليلتقي أترابه. يدخل ويخرج من مطابخ الجيران، فالفلاحون مخلصون للمثل القديم: «امسح أنف ابن جارك وأدخله بيتك» لعله كان قد تجاوز السادسة عندما ذهب إلى المدرسة للمرة الأولى. دار الخوري قريبة من المدرسة فيعرج الطفل عليه بين الحين والآخر، تترك الزيارة المخيّرة أثراً عميقاً في نفس الكاهن فيعمد إلى اهدائه صور القديسين الملونة. وإذا ما التقى الطفل الحذّاء لحظة خروجه من بيت الكاهن يبادره الحذّاء:

ـ يبدو أنك صديق كبير لموسين ميليان.

فيسأله الطفل:

ـ أولست انت كذلك؟

ـ أووه ـ يجيب الحذّاء متهرباً ـ الخوارنة هم أكثر من ينشط في هذا العالم كيلا يعملوا شيئاً. لكن موسين ميليان قديس.

كان يلفظ جملته الأخيرة بتفخيم مبالغ فيه مخافة أن يظنّوه جاداً.

وراح باكو الصغير يكتشف الحياة. صادف الكاهن يوماً وهو يبدّل ثوبه، فحار لمرآه البنطال تحت الثوب.

وعندما يلتقي موسين ميليان والد باكو في طريقه يسأله عن الطفل بلهجة تعظيم:

ـ وأين الوريث؟

كان الوالد يمتلك كلباً ناحلاً وكريهاً، فالفلاحون يعاملون كلابهم بقسوة وازدراء ولعل تعلقها بهم يعود لهذا السبب.

وكان الكلب يرافق الطفل إلى المدرسة أحياناً، يسير إلى جانبه خانعاً ودونما مرح، ذائداً عنه بحضوره لا غير. وما أكثر ما حاول باكو اقناع الكلب بأن للقطط أيضاً حقاً في الحياة، لكن الكلب ما كان من هذا الرأي فاضطر قطهم المسكين إلى الفرار نحو الحقول. وعندما نوى باكو الخروج للبحث عنه والعودة به أوضح له والده عبث المحاولة، فلا ريب في ان الحيوانات البرية فتكت به، فطيور البوم لا تحتمل وجود حيوان في البرية يجاري بصرها الحاد في العتمة، لذا فهي تلاحق القطط وتفترسها. منذ عرف ذلك أصبح الليل بالنسبة إليه غامضاً ومخيفاً، فصار يتنصت برهافة قبل الاستسلام للنوم عساه يسمع اصوات الليل.

وإذا كان الليل ملكاً لطيور البوم فالنهار ملك للأطفال. كان باكو متمرداً في السابعة من عمره، فانشغال باله ومخاوفه الليلية لا تمنعه من الاقتتال مع أترابه بعد خروجه من المدرسة.

أصبح في تلك الأيام بمثابة صبي مساعد للكنيسة. ومن بين كنوز أطفال الضيعة ثمة مسدس قديم يتنازعونه فلا يسمح لاحد الاحتفاظ به أكثر من أسبوع، وفي حال انتقاله إلى حوزة باكو لسبب ما ـ كفوزه في اللعب أو بالتبادل ـ ما كان يفترق عنه فيخفيه في زناره تحت ثوب الصلاة، لدى اسداء العون للكاهن في الطقوس. وحدث مرة، عندما همّ باكو بحمل كتاب القداس والركوع، ان انزلق السلاح وسقط على أرض المذبح محدثاً ضجة هائلة. ظل السلاح مرمياً

للحظة ثم انقض عليه الصبيان، دفع باكو الصبي الآخر وامسك المسدس، رفع ثوبه وثبته على خاصرته ثم أجاب الكاهن:

ـ Etcwm splritu tuo *

انقضت الصلاة فاستدعاه موسين ميليان. نهره وطلب منه المسدس، لكن باكو كان قد أخفاه وراء المذبح. فتش موسين ميليان الطفل دون طائل بينما اكتفى باكو بالإيجاب نفياً، وما كان باستطاعة كل جلّادي محاكم التفتيش القديمة أن يخرجوه من نفيه، فرضخ موسين ميليان أخيراً وسأله:

ـ لأي شيء تريد ذلك المسدس يا باكو؟ من تريد أن تقتل؟

ـ لا أحد.

ثم أضاف انه يحفظه كيلا يستأثر به اطفال آخرون هم اسوأ منه، فأذهلت الذريعة موسين ميليان. كان منشأ اهتمام موسين ميليان بباكو هو معرفته بضحالة الدين لدى أهله، وظنّ أنه باجتذابه الابن قد تهتدي بقية العائلة.

كان باكو في السابعة عندما حلّ الأسقف في القرية وثبّت الاطفال بسّر الميرون.

تركت هيئة الحبر، الذي كان عجوزاً أبيض الشعر وطويل القامة، أثراً عميقاً في نفس الطفل، فالتاج الأسقفي والدثار الشتوي وعصا الاسقفية المذهب زودت الطفل بتصور تقريبي عما يجب أن يكون عليه الاله في السموات.

بعد التثبيت تحدث الأسقف مع باكو في منزل الكاهن. سمّاه الاسقف «غالوبين». لم يسبق لباكو ان سمع تلك الكلمة.

وهكذا جرى الحوار:

ـ من هذا «الغالوبين»؟

ـ باكو، لخدمة الاله وكلّي الرفعة.

كان الطفل قد درّب للقاء الأسقف، فتابع هذا يسأله بلطف:

---

* ـ «مع روحك أيضاً» ـ م ـ

ـ ماذا تريد أن تصير في هذه الحياة؟ خوري؟

ـ لا، سيدي.

ـ جنرال؟

ـ لا، سيدي، ولا جنرال. اريد ان اصير فلاحاً، كوالدي.

فضحك الاسقف. وما ان لاحظ باكو نجاحه في اثارة اهتمام الاسقف حتى تابع موضحاً:

ـ وان تكـون لدى ستـة بغـال أخـرج بها عبر شارع مايور صائحـاً: توردیلا!!!، كابيتانا!!!، خرائـ. . . .

هلع موسين ميليان ونمّت عن يده اشارة تأمره بالكف. كان الأسقف يضحك.

انتهز الكاهن الإنطباع المؤثر الذي خلّفته زيارة الاسقف ليعدّ باكو وأطفالاً آخرين لتناول القربان. وأيقن في تلك الأيام أنه من المستحسن التظاهر بمشاركة الأطفال خبثهم بدلاً من لعب دور الرقيب المانع.

كان يعلم أن المسدس بحوزة باكو لكنه لم يفاتحه بالأمر.

يشعر باكو بثقة في النفس، لكن الحذّاء يرمقه احياناً بشيء من السخرية.

ـ «لم؟» ـ ويقول له الطبيب لدى زيارتهم:

ـ مرحباً يا «كاباروس».

معـظم جيران وأصدقاء العائلة يحفظون لباكو سراً ما: قصة المسدس، كسر زجاج نافذة ما، سرقة قبضة من ثمار الكرز. . لكن الكتمان الأعظم كان صمت موسين ميليان.

وفي يوم من الأيام حدّثه الخوري عن أمور معقدة، فقد شرع يعلمه موسين ميليان كيف يجتـاز امتحـان الضمير متدرعاً بالوصايا العشر. وعندما وصل إلى السادسة تردّد الكاهن برهة ثم قرر أخيراً:

ـ دعها جنباً، فليست عندك ذنوب من هذا النوع.

فافترض باكو بعد تفكر انها على صلة بعلاقة الرجل بالمرأة.

أكثر باكو من ارتياده للكنيسة، لكنه ما كان يساعد الكاهن سوى في الحالات التي تتطلب فيها الطقوس معونة طفلين. وما أعظم الامور التي اكتشفها خلال الأسبوع المقدس، ففي تلك الأيام يتبدّل كل شيء في المعبد، يحجبون الصور والتماثيل بأوشحة بنفسجية اللون، ويختفي المذبح الكبير وراء قطعة قماش كتّاني هائلة من اللون ذاته وتتحول إحدى الأجنحة إلى غموض عجيب، ذلك هو موقع النصب. وللوصول إلى النصب يتوجب المرور بدرج عريض بسطت على أرضه سجادة سوداء. وعند أسفل الدرج، على وسادة بيضاء من الأطلس، وضع صليب معدني مغطى بقماش بنفسجي يرسم عند اطراف الصليب شكلاً شبيهاً بالمعين تطل من تحته قاعدة الصليب المزخرفة بالنقوش، فيدنو المؤمنون منها، يركعون ويقبّلونها. وإلى جانب، ثمة طبق كبير احتوى قطعتين أو ثلاثاً من الفضة وأخريات كثيرة من النحاس.

الصمت المهيمن، وتوزع الإنارة في عتمة الكنيسة، إضافة للشمعدانات المنتشرة على الدرجات بشموعها الملتهبة، كان كفيلاً **بإشاعة إحساس بالرهبة** الغامضة في نفس الطفل.

تحت النصب، وفي مكان خفي، يعزف رجلان في مزامير من القصب لحناً جد حزين. كانت المقطوعة مقتضبة فترددت لانهائياً طوال النهار.

تنازعت باكو الصغير مشاعر شتى متضاربة.

لم تقرع الأجراس خلال يومي الخميس والجمعة المقدسين وانطلقت بدلاً عنها أصوات الطرق، فأسفل قبة برج الأجراس ثمة اسطوانتين خشبيتين هائلتين أحيطتا بصفوف من عصي تنهال على الأسطوانة الخاوية ما ان تبدأ هذه بالدوران. كان موضع هذه المطارق فوق الأجراس، يحملها محور مشحّم غرز في جدارين مقابلين للبرج. هذه المطارق العملاقة كانت تصدر صوتاً شبيهاً باصتكاك العظام.

صبيا الخدمة يحملان آلتي طرق في أيديهما ويرافقان القداس بالطرق.
كان باكو يتأمل كل ذلك مأخوذاً.

ولعل أكثر ما كان يثير فضوله: التمثالان الواقفان على جانبي النصب الذي بدا كأعماق علبة تصوير هائلة وقد مدّد نفق عدساتها. وقد امعن في ارتباكه مشاهدته لهذين التمثالين في مستودع المعبد حيث تراكمت الأشياء القديمة وقد علاهما الغبار وتكسّرت انوفهما. وكان قد رأى في ذلك المستودع أيضاً سيقاناً لتماثيل السيد المسيح مخلوعة عن أجسادها، وتماثيل شهداء عراة ومتألمين، ورؤوس Ecce-homos * دامعة، ومناديل فيرونيكات تتدلى من الجدران، وقواعد خشبية تعلوها تماثيل نصفية لسيدات يتحولن، إذا ما سترت حواملهن، إلى تماثيل للسيدة العذراء.

عندما كانا يتسللان إلى المستودع كان القندلفت الآخر يتصرف بألفة بالغة مع تلك التماثيل فيمتطي احد الرسل وينقر رأسه بعقد اصابعه ليتبين ما إذا كان ثمة جراذين في داخله، ثم يضع في فم الآخر لفافة ورق فيبدو وكأنه يدخن، وينتقل إلى القديس سباستيان لينزع عنه السهام ويعيد غرزها بقسوة. وفي ركن من المكان يقبع النشز الضريحي المستخدم في القداس الجنائزي، مغطى بخرق سوداء ملطخة بالشمع ومزينة من جهاتها الأربع بجمجمة وعظمتين متصالبتين.
كان القندلفت الآخر يختبىء بين الحين والآخر في داخله وينشد أغنيات بذيئة.

في سبت الأمجاد، صباحاً، يمضي الأطفال إلى الكنيسة حاملين عصيهم الصغيرة التي حافظوا عليها طوال السنة لتلك المناسبة. انهم ماضون للفتك باليهود. وكيلا يحطموا المقاعد، يأمر موسين ميليان بوضع ثلاثة جذوع كبيرة بالقرب من المذبح. ثم يفترض ان اليهود يسكنون تلك الجذوع (الامر الذي ليس من الصعب على الأطفال تصوره).

---

* ـ هذا هو الانسان

يقعد الأطفال خلف الجذوع ويترقبون، وما ان يلفظ الخوري في تراتيله كلمة Resurrexit* ينهالون عليها ضرباً محدثين ضجيجاً فظيعاً يستمر لغاية انشاد «هلّلوا لله» واول قرع للأجراس. يبدو باكوا بعيد انقضاء اعياد الفصح كالمتماثل للشفاء بعد مرض، فلشدّ ما كانت الطقوس مثيرة وغريبة الأسماء: «الحلكة»، «عظمة الكلمات السبع»، «مشهد قبلة يهوذا»، و«مشهد الاحجبة الممزقة».

سبت الأمجاد هو بمثابة عودة النور والغبطة. وبعد صمت يدوم ثلاثة أيام يعاود برج الأجراس قرعة فتعمد خيرونميا إلى التقاط حصيات من حصباء النهر لّادعائها بأنها تخفّف من آلام الاسنان إذا ما وضعت في الفم.

كان باكو يتردد على الكاهن مع رهط من رفاق يتأهبون مثله لتناول القربان، فيقوم الخوري بتلقينهم ويوصيهم ألّا يقترفوا أعمالاً شيطانية في تلك الأيام. يتوجب عليهم الكف عن الاقتتال وعدم المرور بالمغسل العام حيث تتحدث النسوة بطلاقة بالغة.

منذئذ راح ينتاب الأطفال فضول جارف يجعلهم يرهفون الاصغاء إذا ما مروا بالقرب من المغسل.

وكانوا يتجاذبون أطراف الحديث حول تناول القربان ويختلقون أهوالاً ومخاطر جد مغرقة في غرابتها، فيدّعون انه يتوجب فغر الفم إلى أكبر حد ممكن لحظة التناول لأن ذلك الذي يمسّ القربان اسنانه يخرّ صريعاً على الفور ويمضي مباشرة إلى الجحيم.

في أحد الأيام طلب موسين ميليان من الصبي ان يرافقه لأخذ مسحة المرضى إلى مريض ينازع. سارا إلى ضواحي القرية حيث لا وجود للبيوت ويقطن الناس في كهوف حفرت في الصخر. يتم الدخول إلى الكهف عبر ثغرة مستطيلة مكلّسة الاضلاع.

كان باكو يحمل على منكبه الكيس المخملي الذي وضع فيه الكاهن أدوات

---

* - «بعث».

الشعائر. دلفا مطأطئين يسيران بحذر. وجدا في الداخل حجرتين، الأرض فيهما من بلاط حجري غير مستو. كان الظلام يغشى وليس ثمة ضوء في الحجرة الأولى، لكنهما ألفيا في الثانية قنديل زيت وحيد.

استقبلتهما عجوز رثة الثياب تحمل عقب شمعة مشتعلة. كان السقف الصخري واطئاً، وعلى الرغم من انه كان يسمح بالوقوف باستقامة فقد عمد الكاهن إلى احناء رأسه من قبيل الحذر. ما من تهوية هناك سوى ثغرة المدخل.

في عيني العجوز الجافتين ملامح وهن وهلع بارد، وفي الركن سرير من الواح خشبية يرقد عليه المريض. لم ينبس الكاهن ببنت شفة، وكذلك المرأة، كل ما كان يسمع هو شخير رتيب ومحشرج ينمّ عن صدر المريض باصرار.

فتح باكو الكيس، ارتدى الكاهن البطرشيل وراح يخرج قطع المشاقة الكتانية وقارورة ملأى بالزيت، ثم شرع يصلي باللاتينية.

العجوز منصتة، بصرها على الأرض وعقب الشمعة في يدها. كان ظل المريض مرتسمًا على الجدار بصدره المرتفع والرأس الواطىء، فيتحرك لأدنى نأمة من الذؤابة.

كشف الكاهن عن قدمي المريض. كانتا كبيرتين، يابستين، متشققتين، قدمي فلاح. ثم انتقل إلى الرأس. بدا جلياً أن المحتضر يلجأ إلى ما تبقى لديه من طاقة من أجل مهمة التنفس الشاقة. غدت الحشرجة جشّاء ومتزايدة. لمح باكو ذبابتين أو ثلاثاً تحوم فوق رأس المريض، فبدت بفعل النور وكأنها معدنية.

قام موسين ميليان بمسح العينين، الأنف والقدمين. لم يشعر المريض بذلك. وعندما فرغ، قال الكاهن للمرأة:

ـ ليتغمده الله برحمته.

مكثت العجوز صامتة، تسري رعدة في فكّها، رجفة تبين عظم الفك من تحت البشرة. وما انفك باكو يستعرض ما حوله. ما من نور ولا ماء ولا نار.

كان موسين ميليان يتعجل المغادرة، لكنه كتم تلك الرغبة لأنها تفتقد الحس المسيحي.

رافقتهما العجوز إلى الباب بالشمعة الملتهبة. لم يصادفا هناك أي اثاث سوى كرسي متهالك يستند على الجدار. في الحجرة الخارجية، وفي ركن من الأرض ثلاثة حجارة مسودة بالهباب وبعض الرماد، وقد علقت سترة واسعة من مسمار دقّ في الجدار.

بدا وكأن الكاهن يهم بالكلام، لكنه صمت، وخرجا.

كان الليل قد حلّ والنجوم جلية في الأعالي. سأل باكو:

ـ هل هؤلاء الناس فقراء يا موسين ميليان؟

ـ أجل يا بني.

ـ جد فقراء؟

ـ للغاية.

ـ هل هم أفقر من في القرية؟

ـ ومن ذا يدري؟ لكن ثمة ما هو اسوأ من الفاقة، وهم تعساء لأسباب أخرى.

لاحظ القندلفت ان الكاهن يجيبه على مضض، فسأله:

ـ فماذا؟

ـ كان بمقدور ابنهم اسداء العون لهم، لكنني سمعت انه مسجون.

ـ هل قتل احداً؟

ـ لا أدري. وما كان هذا ليدهشني.

ما استطاع باكو الركون صامتاً. كان يمشي في العتمة على أرض غير مستوية، وقال متذكراً المريض:

ـ انه يموت لعجزه عن التنفس. ونحن الآن نمضي ويبقى هو وحده.

انهما يسيران وقد علا ارهاق بالغ محيا موسين ميليان. أضاف باكو:

ـ حسن. مع زوجته، لحسن الحظ.

كانت المسافة التي تفصلهما عن أولى البيوت طويلة. نوّه موسين ميليان للطفل ان شفقته جديرة بالتقدير وانه ذو قلب طيب.

وسأل الطفل ما اذ كان امتناع الناس عن زيارتهم بسبب من الفاقة او الابن السجين. فسارع الكاهن ـ رغبة منه في انهاء الحوار ـ مؤكداً ان المنازع سيتوفى بين لحظة واخرى وانه سيصعد إلى السماء حيث تنتظره السعادة. فنظر الطفل نحو النجوم، ثم قال:

ـ ليس ابنهم بالشخص السيء، أيها الأب ميليان.

ـ ولماذا؟

ـ لأنه لو كان كذلك لأصبحوا ميسوري الحال. كان ليسرق حتمًا.

عزف الخوري عن الإجابة، وتابعا المسير. كان باكو سعيداً لمرافقته الكاهن، فصداقته تضفي عليه شيئاً من السلطة، لكنه عاجز عن تفسير تبدّيها.

سارا يكتنفهما الصمت، ولدى وصولهما إلى الكنيسة كرّر باكو سؤاله ثانية:

ـ لماذا لا يزوره احد يا موسين ميليان؟

ـ وما أهمية ذلك يا باكو؟ فمن يموت، فقيراً كان أو غنياً، يكون وحيداً حتى ولو عاده الآخرون. كذا هي الحياة، والله، مبدعها، يعلم لأي شيء هي كذلك.

استرجع باكو صمت المريض وزوجته وقدميه المتخشبتين كما الصلبان المكسورة المهجورة في سقيفة الكنيسة.

حفظ الكاهن كيس المسوح وأنبأه باكو انه ماض لاشعار الجيران كي يذهبوا لزيارة المريض ولاسداء العون لزوجه. سيدعوهم من طرف موسين ميليان، وهكذا لن يمتنع احد.

نبّهه الخوري قائلاً إن أفضل ما يستطيع القيام به هو الذهاب إلى بيته، وأضاف:

ـ وماذا بمقدورك ان تفعل؟ عندما يسمح الإله بالفقر والآلام يكون لسبب ما. ان الكهوف التي رأيتها بائسة دون ريب، لكن هناك ما هو اسوأ حالاً في قرى اخرى.

انطلق باكو شبه مقتنع إلى داره، لكنه تحدث خلال العشاء مرتين أو ثلاثاً حول المريض وكيف انه لا يملك حطباً من أجل اشعال النار. كان الوالدان صامتين. تروح الأم وتجيء بينما يوضح باكو أن الرجل المسكين لا يملك فراشاً فهو يرقد على ألواح خشبية.

توقف الوالد عن قطع الخبز ورمقه، ثم قال:

ـ انها المرة الأخيرة التي تذهب فيها مع موسين ميليان من أجل مسحة المرضى.

روى لهما الطفل ان للمريض ابناً في السجن، وان الأب لا ذنب له.

ـ ولا الابن. ـ علقّ الوالد.

وانتظر باكو متوقعاً أن يتابع والده الكلام، لكنه راح يتحدث عن أمور اخرى. كما في معظم القرى ثمة في ضاحية القرية فسحة سمّوها «واجهة الشمس»، تقع هذه اسفل جدار صخري وتطل على الجنوب. يتميز الموقع بالدفء شتاء والبرودة صيفاً، فتؤمّه النسوة الفقيرات العجائز بغية الخياطة والغزل والثرثرة حول المجريات. وكانت «الواجهة» حافلة في الشتاء. ثمة عجوز تمشّط شعر حفيدتها، وخيرونيما النشوى غبطة تعدى الأخريات فرحتها. ويحدث أحياناً أن يعمّ السأم في المكان فتقوم بدون مقدمات وترقص وحيدة على ايقاع أجراس الكنيسة.

نقلت خيرونيما إلى «الواجهة» أخبار باكو المشفق على العائلة المحتضرة، وتحدثت عن مقاومة موسين ميليان لمساعي العون ـ مبالغة في هذا بغية تعميق الأثر لدى المستمعات ـ وعن موقف والد الصبي، وحسبما روت فقد خاطب الوالد موسين ميليان قائلاً:

ـ ومن تكون أنت لتأخذ الصبي من أجل مسحة المرضى !؟

وهـذا افـتراء، لكن رواد «الواجهة» يصدّقون كل ما تقوله خيرونيما التي تتحدث باحترام عن كثير من الناس عدا عائلتي دون فاليريانو ودون غومير سيندو.

بعـد مضي ثلاثـة وعشرين سنة، يتذكر موسين ميليان تلك الأحداث، ويتنهد تحت ثوبه الطويل مترقباً لحظة بدء القداس وقد اسند رأسه على الحائط، عند البقعة الملطخة. فكّر ان زيارة باكو لذلك الكهف اثّرت كثيراً فيما جرى بعد ذلك. «واتى معي. انا خذته». اضاف مرتبكاً بعض الشيء.

يدلف القندلفت إلى الابرشية ثم يخرج ليقول:

ـ لم يحضر أحد بعد ياموسين ميليان.

كرّر العبارة لأن الكاهن بدا، مطبق العينين، وكأنه ما سمع شيئاً. ثم انشد لنفسه مقاطع أخرى خامرت ذاكرته:

عبثاً نقّبوا عنه في الجبال.
ما وجدوه
وإلى داره ساقوا الكلاب
لتشتم الرائحة.
هاهي تشتم، هاهي تشتم
ملابس باكو القديمة.

ما زال يتردد قرع الأجراس، فتعاوده ذكرى باكوا: «وكان تناوله للقربان جرى البارحة». ثم راح الطفل ينمو، وفي ثلاث أو اربع سنوات بلغ قامة والده، فكفّ الناس عن مناداته باكيتو وصار اسمه باكو الطاحوني. فقد كان جدّ والده يمتلك طاحـونة توقفت عن العمل منذ زمن، وهم يستخدمونها الآن كصومعة للحبوب ومأوى لقطيع صغير من الماعز. ومرة، عندما ولّدت العنزات، قدم باكو لموسين ميليان جدياً صغيراً عرقص طويلاً في حقل الخورية.

ومع مرور الوقت صار الفتى يبتعد عن موسين ميليان. ما عاد يلتقيه في الطرقات، وما من وقت للزيارة.

لكنه ظل يرتاد الكنيسة في الآحاد، ويتغيب عنها أحياناً في الصيف. ثم يعترف في أعياد الفصح ويتناول القربان كل عام.

وعلى الرغم من انه ما زال امرد، كان الفتى يقلّد الكبار. وما كان يذهب إلى المغسل العام للتنصت إلى احاديث الفتيات فحسب بل ليتلقى تعليقاتهن الخبيثة والصريحة فيجيب عليها بجرأة.

يدعى المكان الذي تؤمّه الفتيات للغسيل: ساحة الماء. وكانت حقاً ساحة واسعة تشغل ثلثيها بركة عميقة الغور. وكان الفتيان يستحمون فيها عراة تماماً في عصريات الصيف الحارة، فتتظاهر النسوة باستنكار سطحي لا يتعدى حدود الشفاه، فصيحاتهن وقهقهاتهن والعبارات المتبادلة مع الشبان ـ بينما تلقلق طيور اللقلق في البرج العالي ـ كانت تنمّ عن غبطة بدائية.

استحم باكو الطاحوني مرة في تلك البركة، ولا كثر من ساعتين عرض نفسه طوعاً لمزاح الغسالات. كن يوجهن اليه كلمات استفزازية ومسبّات نسائية غايتها الاطراء.

كان ذلك بمثابة التفتّح على الحياة بالنسبة لهؤلاء الشبان العزّاب.

بعيد ذلك الحدث سمح له والداه بالخروج ليلاً والعودة بعد خلودهما إلى النوم.

كان باكو يناقش والده احياناً في شؤون العمل، وجرى في احد الايام بينهما حديث حول امر على جانب كبير من الأهمية: استئجار مراعي الجبل والاعباء التي يتجشمونها مقابل ذلك. انهم يدفعون كل عام رسمًا منتظمًا لدوق عجوز ما وطأ أرض القرية أبداً. وذلك الدوق يقبض الرسوم من فلاحي خمس قرى أخرى مجاورة. وكان باكو يرى ان ذلك غير عادل. قال والده:

ـ اذهب واسأل موسين ميليان ما إذا كان الأمر عادلاً أم لا، فهو صديق دون فاليريانو، مدير أعمال الدوق. اذهب وسترى بما يجيبك.

فسأل باكو الخوري بسذاجة، فأجابه هذا بقوله:

ـ وهل يهمّك ذلك يا باكو؟

فقال باكو بجرأة ما كان قد سمعه من أبيه: ان في القرية اناساً يعيشون في ظروف اقسى من شروط حياة الحيوانات، وان بالامكان الاتيان بعمل يقضي على ذلك البؤس.

ـ أي بؤس؟ ـ سأل موسين ميليان ـ ثمة بؤس أشد في ربوع اخرى.

ثمّ انّبه بشدة لاستحمامه أمام الغسالات في ساحة الماء. فاضطر باكو إلى السكوت.

ازداد الفتى متانة وجدية. وكان يمضي في اماسي الآحاد مرتدياً بنطال المخمل الجديد، القميص الأبيض والصدرية المزدانة بالاغصان والأزهار المطرزة ليلعب بالكرات. فتصل اسماع موسين ميليان المنكب على قراءة كتاب القداس في الخورية أصوات ارتطام الكرات والقطع النقدية النحاسية المتساقطة على الأرض حيث تجمع المراهنات. وكان يطل أحياناً من الشرفة فيلحظ نمو باكو ويخاطب نفسه:

ـ «هاهو ذا! وكأنني عمّدته بالأمس».

يستبدّ الحزن بالكاهن وقتما يدرك هجران الفتيان للكنيسة ما ان يشبّوا ثم عودتهم اليها عند الشيخوخة عندما يخشون الموت المتربص.

أما باكو، فقد جاءه الموت قبل الشيخوخة بزمن طويل. وهاهو موسين ميليان يتذكره ساهماً بعمق وهو ينتظر في الخورية موعد بدء القداس.

مازالت أجراس البرج تقرع. قال القندلفت بغتة:

ـ يا موسين ميليان، لقد دخل دون فاليريانو الكنيسة!

فمكث الخوري مطبق العينين مسنداً رأسه على الجدار. ويتذكر الصبي القصيدة:

في «لاباردينا» الجبلية
هناك وجدوه
«استسلم، سلّم نفسك للعدالة
أو نقتلك ههنا».

اطلّ دون فاليريانو على الخورية وقال:

ـ بالأذن.

انه يرتدي ملابس ابناء المدن، لكن في الصدرية من الازرار ما هو أكثر من المعتاد، وسلسلة ذهبية تتدلى منها حلي عديدة ترنّ لدى المسير.

دون فاليريانو ضيق الجبين وذو عينين زائغتين. يتدلى الشاربان من الجانبين فيحجبان ملتقى الشفتين، وعندما يتحدث عن «الدفع» يقول: «افراغ الكيس»، فهو يجد هذا التعبير متميزاً.

لاحظ استمرار موسين ميليان باغماض عينيه، فتجاهله وجلس قائلاً:

ـ يا موسين ميليان، لقد تحدثت يوم الأحد المنصرم عن ضرورة النسيان. ليس النسيان بالأمر السهل. ولكن هاأناذا، وأناأول القادمين.

وافق الكاهن بحركة من رأسه دون أن يفرج عينيه. وضع دون فاليريانو قبعته على الكرسي واضاف:

ـ إنني اتكفّل باتعاب القداس. إلّا إذا ارتأيتم غير ذلك. قل لي كم يكلّف.

رفض الكاهن بايماءة من رأسه وظل مطبق العينين. وعاد إلى باله كيف لعب دون فاليريانو دوراً مسؤولاً في نهاية باكو البائسة. انه مدير اعمال الدوق، ويمتلك أراضيه الخاصة.

أكمل دون فاليريانو الراضي عن نفسه ابداً:

ـ أقول، كفانا بغضاء. انني أشبه في هذا والدي المرحوم.

سمع موسين ميليان في ذاكرته صوت باكو. فكّر في يوم قرانه. لم يتزوج باكوا كيفما كان، كما يفعل غالبية الشبان في طفرة لاندلاع رغبة جامحة وباكرة. لقد تمّت الأمور بتريث وعلى أحسن وجه.

ولكن، وقبل ذلك، انشغل اهله بقضية الخدمة العسكرية. كان يقلقهم احتمال حصوله على رقم متدن في القرعة فيضطرّ إلى اداء الخدمة. فطرحت الوالدة الأمر امام الخوري فاقترح هذا دعاء الله واستحقاق فضله باعمال خير.

عرضت الأم على ولدها الخروج في موكب يوم الجمعة لأعياد الفصح مرتدياً ثوب التائبين كما يفعل أولئك الذين يسحبون اقدامهم العارية الراسفة بالاغلال عنـد الأكعاب. فأبى باكو القيام بذلك. لقد رأى التائبين في سنوات ماضية، يجرجرون سلاسل لا يقلّ طولها عن ستة امتار ويحدث احتكاكها بالبلاط وبالتربة المرصوصة صوتاً أجش ومرعباً. يكفّر البعض بذلك عن ذنوب اقترفوها ويسيرون سافرين بأمر من الخوري ليراهم الآخرون. أما بعضهم الآخر فيمضون برجاء ما ويحجبون وجوههم.

ولدى عودة الموكب إلى الكنيسة مع العتمة الزاحفة تكون أكعاب التائبين مدمـاة، فتنكمش أجسادهم الماً كلما قدّموا ساقاً وينحنون كالدواب المتهالكة. أناشيد الورعات ترافق ضوضاء الحديد محدثة تناقضاً عجيباً. ومع دخول التائبين مبنى الكنيسة تعلو ضوضاء السلاسل بفعل القباب، وتضج المطارق في البرج.

يذكر باكو ان التائبين الشيوخ يمشون سافرين دوماً، وكيف تطلق النسوة الثرثارات بحقهم عبارات رهيبة:

ـ انـظري ـ كانت تقول خيرونيما ـ هاهو خوان **القاطن** في زقاق سانتا آنا الذي سطا على أرملة الخياط.

يتفصّد التائب عرقاً ويجرجر قيوده، فتضع اخريات اكفهن على أفواههن ويعلّقن:

ـ وذاك خوان أبو البقرات الذي سقى امّه سمّا سليمانياً ليرثها!

قرر والـد باكو، على الرغم من لامبالاته حيال أمور الدين، ربط قدميه بالقيود. تدثّر بالثوب الأسود، اعتمر القبعة، وربط خاصرته بالحبل الأبيض. لكن الكاهن قال لباكو:

ـ لا جدوى مما يفعله والدك، فهو يقوم بذلك راجياً عدم الاضطرار إلى استخدام راع في حال سوقك إلى خدمة العلم.

كرر باكـو كلمات الخوري لوالده المنشغل بمعالجة قروحه بالملح والخل، فصرخ هذا:

ـ واضح أن لسان موسين ميليان طويل للغاية!

لسبب أو لآخـر حصل باكو في القرعة على رقم مرتفع، فطفحت الدار بالفرحة، لكنهم كتموا مشاعرهم أمام الآخرين كيلا يجرحوا من كتب لهم أداء الخدمة.

خير ما تتمتع به خطيبة باكو في رأي القرويين هو همّتها ونشاطها.

وطوال سنتين، قبل ان تتم الخطبة رسمياً، كان باكو يتقصد المرور بدارها في طريقه إلى الحقول. وعلى الرغم من ان خروجه يكون فجراً كان يرى الشراشف مدلاة من النـوافـذ والطريق مكنّسة نظيفة، ومرشوشة رطبة في الصيف. وكان يصادفها أحياناً فيحييها وتردّ هي التحية. ثم غدت التحية اكثر ايحاء، وراحا يتبادلان بضع كلمات حول شؤون الأرض، فسألته في شباط، على سبيل المثال:

ـ هل صادفت طيور الكوتوفيا؟

فأجابها:

ـ لا. لكنها لن تتأخر لأن نباتات الجولق بدأت تزهر.

وكان أحياناً يتعمّد الافصاح عن مروره صائحاً ببغاله مخافة ألاّ يجدها عند الباب أو مطلة من النافذة، وإذا لم يف ذلك بالغرض يعمد إلى الغناء.

في أواسط العام الثاني صارت أغيداً ـ وهذا اسم الفتاة ـ تنظر إليه مواجهة وتبتسم له. وفي أيام الرقص تذهب مع والدتها وتأبى الرقص مع سواه.

بعد ذلك جرت حادثة كان لها صدى بعيد ففي إحدى الليالي حظر العمدة جولات الفرق المنشدة فثمة ثلاث منها متعادية ويخشى وقوع اعمال عنف. لكن باكو خرج مع جماعته على الرغم من المنع، مما دفع اثنين من رجال الشرطة إلى تفريق الجماعة واعتقال باكو.

ساقاه ليقضي ليلته في السجن، لكن باكو تمكن منها وخلّصهما البنادق. والحقيقة ان الشرطيين لم يتوقعا من باكو، صديقهما، فعلة مماثلة.

ومضى باكو بالبندقيتين إلى بيته.

في اليوم التالي كانت القرية بأجمعها على علم بما حدث. وذهب موسين ميليان لمقابلة الشاب وأعلمه أن ما اقترفه أمر خطير سيكون له انعكاسات، ليس عليه فحسب، بل على القرية بمجملها.

ـ ولم؟ ـ سأل باكو.

فذكر موسين ميليان حادثة اخرى مماثلة جرت في بلدة ما، وان الحكومة عاقبت بلدية تلك القرية وحرمتها من الشرطة لسنوات عشر..

ـ أتتصور هذا!؟ ـ قال الخوري هلعاً.

ـ لا يضيرني البقاء بدون شرطة.

ـ لا تكن أبله!

ـ أقول الحق يا موسين ميليان.

ـ ولكن، أتعتقد أنه بالامكان السيطرة على الناس بدون شرطة؟ لدينا الكثير من المؤذين في هذا العالم.

ـ لا أعتقد ذلك.

ـ وسكّان الكهوف؟!

ـ بدلاً من جلب الشرطة ليسعوا إلى اخراج الناس من الكهوف يا موسين ميليان!

ـ انك لحالم مخدوع.

ما بين مزاح وجدّ استعاد العمدة السلاحين وأسكتت القضية.

لكن الحادثة اضفت عليه سمعة الشاب الشجاع، الأمر الذي راق لأغيدا كما بثّ في جوانحها شعوراً بالقلق والخوف.

واتفقا أخيراً على الزواج.

كانت للعروس طباع أكثر حدّة من حماتها، وكان يدبّ الخلاف بينهما على الرغم من تظاهرها بالتواضع والاحترام. فكانت الوالدة تردد على اسماع ابنها:

ـ انها مياه ساكنة، فاحذر يا ولدي، انها مياه ساكنة.

فيحيل باكو الأمر مزاحاً: انها غيرة الأم.

وعلى عادة العرسان، حام حول دارها منشداً في الليالي، وفي عشية يوم القديس يوحنا ملأ بالأزهار والأغصان الخضراء نوافذ، أبواب، سطح القرميد، وحتى مداخن دارها.

جاء العرس كما توقعه الجميع: مأدبة عظيمة، موسيقا ورقص. وقبل ان تجرى مراسيم الزواج كانت قمصان بيضاء عديدة قد تلطخت بالنبيذ لاصرار الفلاحين على جرعه من القربة. فعلا احتجاج الزوجات والرجال يجيبون بضرورة جعل القمصان ثملة قبل وهبها للفقراء، فيتوهمون بموقفهم هذا ـ التصدّق بها للفقراء ـ انهم ليسوا كذلك.

تحدث موسين ميليان مع العروسين خلال المراسيم. ذكّر باكو انه عمّده وثبّته وناوله القربان الأول، ومتيقناً بأن العروسين شبه جاهلين في أمور الدين قال لهما ان الكنيسة هي الأم المشتركة، وانها منبع، ليس فقط الحياة الآنية، بل وحياة الخلود.

وكما جرت العادة في الأعراس شرعت بعض النسوة بالبكاء وبالتمخّط باصوات عالية.

تحدث موسين ميليان عن أمور اخرى عديدة، وكان آخرها ما يلي:

ـ خادم الاله المتواضع هذا، الذي بارك مهد ميلادكما يبارك الآن سريركما الزوجي. ـ رسم علامة الصليب في الفراغ واكمل: ـ وسيبارك فراش موتكما ان شاء الله، باسم الاب والابن... استهجن باكو الحديث عن فراش الموت وتذكّر للحظة حشرجات المسكين الذي حمل له زيت المسوح، وكان فراش الموت الوحيد الذي شهده. لكن اليوم ليس يوم احزان.

عندما خرجا كانت تنتظرهما عند الباب فرقة موسيقية يربو قوامها عن خمسة عشر عازفاً يحملون الجيتارات، الماندولين، القيثارات والدفوف.

شرعت الفرقة تعزف بشدة، وراح يقرع في البرج اصغر الأجراس.

علّقت شابة اسندت الجرّة على خاصرتها وهي تتأمل موكب العرس متنهدة:

ـ كلهن يتزوجن، وأنا...

توجه الموكب إلى دار العريس والحماتان غارقتان في الدموع.

خلع موسين ميليان ثوبه على عجل ليلحق بالحفل ويشارك فيه. التقى الحذّاء بالقرب من دار باكو. الفاه مرتدياً ثياب الأعياد. كان الحذّاء قصير القامة، عريض الوركين كمعظم أصحاب تلك المهنة، وكان موسين ميليان قد رفع الكلفة في مخاطبته الجميع سواه. سأله ما إذا كان حاضراً في بيت الإله.

ـ أترى يا موسين ميليان؟ إذا كان ذلك بيت الإله فأنا لا استحق دخوله، وفي حال انه ليس كذلك فلأي شيء ادخله؟

ووجد الحذّاء وقتاً كافياً لينقل للخوري خبراً عجيباً قبل ان يفترقا. قال له انه علم من مصدر موثوق ان الملك يتهاوى في مدريد، وانه ـ في حال سقوطه ـ ستتساقط معه اشياء كثيرة.

رائحة الخمرة تفوح من الحذّاء فلم يعره الكاهن انتباها. لكن الحذّاء راح يردد مغتبطاً:

ـ انهم يعدّون الهراوات في مدريد يا سيدي الخوري!

قد يكون في هذا بعض الحقيقة، لكن الحذّاء يتناول الأمور بخفة، ولا تماثله في هذا سوى امرأة وحيدة: خيرونيما.

ان الحذّاء كالقط العجوز، لا يصادق أو يعادي أحداً، وهو على علاقة مع الجميع.

تذكّر موسين ميليان ما ورد في صحيفة عاصمة المقاطعة وكيف انهم لم يخفوا قلقهم حيال ما يجري في مدريد، فحار بم يفكر.

تأمل الكاهن ابهة العروسين، والمدعوين الشباب الصاخبين والشيوخ الفرحين باحتشام. لكنه لم يكف عن التفكير فيما قاله الحذاء الذي يرتدي ملابس عرسه المتضوعة بعطر الكافور. تجمّع حول الحذّاء ستة أو ثمانية من المدعوين الأقل تعلّقاً بالكنيسة. لا ريب في انه يحدثهم عن سقوط الملك المرتقب وعن أعداد الهراوات في مدريد.

بدأوا يسكبون النبيذ. على المائدة ثمة فليفلة مكمورة، اكباد الفراخ ومخلل الفجل المثير للشهية.

سكب الحذّاء لنفسه ما اختاره من الزجاجات القريبة، فأشارت عليه أم العريس قائلة:

ـ هذا النبيذ من النوع الذي يهرىء.

الطاولات الأخرى في الصالة المجاورة، وخيرونيما تجرّ ساقها المصابة بالروماتيزوم في المطبخ. لقد غدت عجوزاً، لكنها ما برحت تضحك الشباب. كانت تقول:

ـ انهم لا يسمحون لي بالخروج من المطبخ مخافة ان تصيب انفاسي نبيذهم بالمرارة. لكن هذا لا يضيرني، فأفضل الأشياء تكون عادة في المطبخ. انا أعرف

ايضاً كيف اتدبّر امور معيشتي. لم اتزوج، لكنني، ومن خلف الكنيسة، حصلت على كل الرجال الذين عنّوا ببالي. عزباء، عزباء، لكن المفتاح موجود في فتحة التهوية!

فتضحك الفتيات بصخب.

دخل الدار السيد كاستولو بيريث، فأصاب الحفل بالدهشة لأنهم ماكانوا يتوقعون حضوره. جاء يحمل مزهريتين من القيشاني ملفوفتين بالورق ومربوطتين بشريط.

ـ لا أدري ما هذا ـ قالها مناولاً الربطتين لوالدة العروس ـ إنها من شؤون الست.

وما ان لمح الكاهن حتى دنا منه وقال:

ـ يا موسين ميليان، يبدو انهم سيقلبون الفطيرة في مدريد.

الشك فيما يقوله الحذّاء امر ممكن، أما قول يدعمه السيد كاستولو فلا. فهذا الأخير امرؤ محترس ويسعى، كما يبدو، إلى التقرّب من باكو الطاحوني. لأية غاية؟ لقد سبق للخوري ان سمع من يتحدث عن انتخابات. لكن السيد كاستولو أجاب متهرباً على تساؤلاته:

ـ إنها مجرد اشاعات. ـ ثم صاح فرحاً متوجهاً لوالد العريس:

ـ ليس المهم ما إذا خلعوا أو لم يخلعوا الملك، المهم هو معرفة ما إذا احتملت المفلوحة حملة الندى. آه؟ فما قول باكو؟

علّق احدهم:

ـ ليست الكروم ما يشغل بال باكو في يوم كهذا.

على الرغم من مظهره المتواضع كان السيد كاستولو يتمتع بشخصية قوية، شخصية تتبدى في عينيه الباردتين المتمحصتين. وكان من عادته ان يستهل كلامه للخوري بعبارة: «مع الاحترام الواجب..»، ولكن بدا جلياً ان ذلك الاحترام ما كان بالكبير.

تداعى مدعـوون أخر فاكتمل الحفل. وبعفوية راحوا يصطفون حسب الأهمية الاجتـماعية. كلهم وقـوف عدا الكـاهن، منتـظمين على طول جدران الصالة. أهمية كل منهم ـ حسب امتيازاته ـ تحدد مدى اقترابه أو ابتعاده من صدر الصـالـة حيث يركن كرسيان هزّازان وخـزانة مزدانة بأوشحة «مانيلية» ومرواح صدفية هي مفخرة العائلة.

الخوري قاعد على أحد الكرسيين بجانب الخزانة، والعروسان بالقرب منه يتقبلان تهاني القادمين ويتباحثان مع مالك سيارة الأجرة الوحيدة في البلدة حول اجرة نقلهما إلى محطة القطار. قال صاحب السيارة المتعاقد مع البريد انهم يحظرون عليه نقل ما يزيد عن راكبين وانه سبق له ان اتفق مع أحدهم الأمر الذي يجعلهم ثلاثة لو قبل بنقلهما، فتدخل السيد كاستولو وعرض عليهما نقلهما بسيارته.

اصغى الخوري بانتباه عندما سمع بالعرض. ما كان يعتقد ان كاستولو يصادق العائلة إلى هذا الحدّ.

عمـــدت خيرونيما إلى استغـــلال ذهـــاب واياب الفتيات اللواتي يخدمن المدعووين لتنقل للحذّاء رسالة تنكيد ما، فيوضح الحذّاء للمقربين:

ـ بيننا برقيات عشق.

في تلك اللحظة انفجرت الفرقة الموسيقية عازفة في الطريق وانشد احدهم:

في عيني العروسين
تبرق النجوم
هي: زهرة «اونتينا»
هو: «اكليل الجبل».

الأغنية التـالية التي جاءت بعـد فاصـل من رقصـة «خوتا» مرحة نوهت بالعرس ثانية:

عاش باكو الطاحوني
وأغيدا ذات القدّ الحسن،

الخطيبان بالأمس
زوجان هما الآن.

واستمرت الفرقة تعزف بالحمية التي يعمل بها فلاحو الأيدي الشثناء والقلوب الحارة. وعندما حسبوا انهم عزفوا بما فيه الكفاية بدأوا يدخلون الدار. اجتمعوا في الجهة المقابلة لصدر الصالة واستغرقوا بالشرب والحديث. ثم انتقل الجميع إلى حجرة الطعام.

قعد العروسان، الاشبينان، موسين ميليان، السيد كاستولو وبعض الفلاحين الموسرين في صدر المائدة، وتحدث الخوري عن طفولة باكو وعن أعماله العفريتية، وكذلك عن سخطه من طيور البوم التي تفترس القطط التائهة ليلاً، وعن رغبته في حمل سكان البلدة جميعاً على زيارة ساكني الكهوف واسداء العون لهم.

عندما تحدث عن هذا لمح في عيني باكو سمة الجد الغني باحتياطي من المآسي، فعمد إلى الاشاحة عن الموضوع وذكر بكثير من التسامح حادثة المسدس ومغامراته في ساحة الماء.

لم تقدم في المأدبة طيور الحجل المكمورة، ولا أسماك الترويت في الفرن ولا الفراريج المحشوة. وانتقلت من يد ليد مشربيات وقراب وزجاجات ملأى بخمور مواسم عديدة.

وصلت اخبار العرس إلى «واجهة الشمس» حيث شربت العجائز المنهمكات بالغزل نخب صحة العروسين بالنبيذ الذي نقلاه كل من خيرونيما والحذّاء.

كان هذا أكثر فرحاً وطلاقة مما جرت عليه عادته، وقال ان الخوارنة هم الوحيدون في العالم الذين يخاطبون من قبل الجميع بلقب الأب، عدا ابنائهم الذين يدعونهم: يا عم.

طفقت العجائز يتحدثن موحيات بالعروسين:

ـ غدت الأماسي باردة.

ـ هذا مناسب لتشارك الفراش مع شخص آخر.

روت احداهن ان الثلج كان يصل إلى الركب يوم زواجها. فعلقت اخرى:

ـ هذا سيء بالنسبة للعريس.

ـ لماذا؟

ـ لأن خصيتيه تختبئان في كليتيه نتيجة للصقيع.

فصاحت خيرونيما:

ـ إيه! انت! ايتها القفا اليابس، اخبريني متى تترملين!

فنهض الحذّاء ـ رغبة منه في اضحاك الأخريات اكثر من مجرد كيل الاهانات لخيرونيما، ونشر لها قائمة طويلة من النعوت والكلمات النابية الفاحشة:

ـ اصمتي، يا لحم الشيطان، ياساق المجلخ، يا بردعة، يا دخيلة، يا هرطوقية، يا خرقة! اصمتي، فإني آتيك بنبأ سار: لقد سقط جلالة الملك في الفخ!

ـ وما علاقتي بالأمر؟

ـ الجمهورية لا تغرز الريش في أجساد الساحرات.

إنها تدّعي التحليق على مكنسة، لكنها لا تسمح لأحد أن ينعتها بذلك، وقد هّمت بالجواب عندما تابع الحذّاء قذفه:

انني اخاطبك يا ثعلبة، هزّازة، مصروعة، عطنة، عرجاء، عين الشؤوم، بومة، أم مخطة، خربة، ثرثارة!!

تراجعت النقّاقة وهو يلاحقها بقبيح الفاظه. انفجرت النسوة ضاحكات. وقبل ان ينمّ عن خيرونيما أي ردّ فعل، وما ان رآها حائرة، حتى قرّر الحذّاء الانسحاب منتصراً. لكنه اصخا السمع في طريقه ليتبين ما يقذف به. سمع خيرونيما تقول:

ـ من كان يتصور هذا القرد يحبس في جوفه كل هذا السباب؟!

وعدن للتحدث عن العروسين: ان باكو من أفضل شبان القرية وقد حصل على عروس يستحقها. وطفقن يلمّحن لليلة الدخلة بتعابير بذيئة.

وهـاهو موسين ميليان يسترجع ذكرى العرس بعد سبع سنوات من انقضائه، قاعداً على كرسيه العتيق. انه لا يفرج عينيه ليوفر على نفسه مشاق التحدث مع دون فالـيريانو، العمدة، فما اصعب التفاهم معه، ذلك الرجل لا يستمع إلى الآخرين أبداً.

سمع في الكنيسة وقع خطوات دون غومير سيندو، فلا احد سواه في القرية يملك جزمات كتلك، لذا فطن موسين ميليان لوصوله قبل ان يلج الخورية.

جاء مرتـدياً بدلـة سوداء، وعندما أبصر الخوري مطبق **العينين حيّا دون** فاليريانو بصوت خفيض. طلب الأذن بالتدخين واخرج علبة التبغ.

فتح موسين ميليان عينيه وسأل:

ـ هل حضر احد سواكما؟

ـ لا، يا سيدي. ـ أجاب دون غومير سيندو برنّة اعتذار وكأنه المذنب في ذلك ـ لم التق احداً في الكنيسة.

بدا موسين ميليان منهكاً للغاية فعاود اطباق عينيه واسناد رأسه على الجدار.

ولج القندلفت في تلك اللحظة فسأله دون غومير سيندو:

ـ ايه.. أيها الشاب. اتعرف من أجل من سنصلي اليوم؟

فاعتمد الصبي القصيدة كجواب:

هاهم يسوقونه في المرتفع

نحو المقبرة..

ـ لا تقل كل شيء أيها الشاب، فالعمدة هنا، وقد يرمي بك في السجن.

التفت القندلفت جهة دون فاليريانو هلعاً، فقال هذا وبصره تائه في السقف:

ـ لكل مزاح اوانه ومكانه.

وحلّ صمت ثقيل.

فتح موسين ميليان عينيه مرة اخرى والتقى نظرات دون غومير سيندو والذي تمتم:

ـ الحقيقة، لا ادري ما إذا كان يتوجب عليّ الانزعاج مما يقول.

فتدخل الخوري قائلاً انه ليس هناك ما يدعو للانزعاج، ثم امر الصبي بالخروج إلى الساحة ليرى ما إذا كان الناس قد تجمعوا في انتظار وقت الصلاة، فقد اعتادت جماعة منهم الانتظار هناك ريثما تكف الأجراس عن القرع. لكن الخوري اراد بذلك منع الصبي من الاسترسال بالقصيدة وبالمقطع الذي يأتي فيه ذكره:

وذاك الذي عمّده
المدعو موسين ميليان
للإعتراف، من السيارة،
يستمع للذنوب.

تحدّث دون غومير سيندو عن الطيبة التي تعتلج في جوانحه وعن ناكري الجميل الذين يردون الحسنة بالسيئة. رأى أن الحديث عن ذلك مناسب في تلك اللحظة وبحضرة الكاهن ودون فاليريانو. وبغتة، صدرت عنه دفقة كرم:

ـ موسين ميليان. هل تسمعني يا سيدي الخوري؟ هاك قرشين من أجل قدّاس اليوم.

فتح الكاهن عينين ناعستين وأشار إلى أن العرض ذاته تقدم به دون فاليريانو، وأنه يريد تلاوة قدّاس الجناز مجاناً.

هيمن صمت مديد.

دون فاليريانو يلفّ السلسلة على سبابته ثم يدعها تتدلى فيصدر رنين عن الحلي المعلقة بها. في احدى الحلي هزيمة من شعر زوجه الراحلة، وفي اخرى

ذخيرة من ذخائر القديس ب. كلاريت ورثها عن جدّ والده. طفق يتحدث بصوت خفيض عن اسعار الصوف والجلود دون ان يجيبه الآخران بشيء.

ما فتىء موسين ميليان يتذكر يوم العرس مطبق العينين. لقد فقدت امرأة قرطاً ما في غرفة الطعام، وحبا رجلان على أربع باحثين عنه. وفكر موسين ميليان ان في كل الأعراس ثمة امرأة تفقد قرطاً عبثاً يبحث عنه.

٩

الشحوب الذي علا محيا العروس صباحاً بفعل أرق الليل انقشع الآن واستعادت نضرتها. كانت تستفسر عريسها عن الوقت بين الحين والآخر. وعند العصر انطلقا إلى المحطة يقلّهما السيد كاستولو شخصياً. لقد خرج معظم المدعوين إلى الطريق لوداع العروسين بالتهليل والمزاح. ثم قفل كثير منهم عائدين إلى بيوتهم، بينما مضى الأكثر شباباً إلى الرقص.

شغل موسين ميليان نفسه بتلك الذكريات ليتفادى الاستماع إلى دون غومير سيندو ودون فاليريانو اللذان يتحدثان ـ كما جرت العادة ـ دون ان يستمع احدهما إلى الآخر. عاد باكو بصحبة زوجه بعد اسابيع ثلاث، وجرت الانتخابات يوم الأحد التالي لعودتهما. كان أعضاء البلدية المنتخبون من الشباب، وقد قدّر دون فاليريانو ان معظمهم من الناس السفلة. وسرعان ما لاحظ والد باكو ان المنتخبين معه في المجلس مناهضون للدوق وانبروا يهاجمون اسلوب تأجير المراعي.

غمرت باكو السعادة ما ان علم بهذا، وآمن للمرة الأولى ان ثمة نفع في السياسة. «سنسترجع المراعي من الدوق» كان يردّد.

اصابت نتائج الانتخابات بعضهم بالدهشة، وكان الارتباك من نصيب الخوري لانه لم يجد من بين المنتخبين من يمكن ان يقال عنه انه متدين. نادى باكو وسأله:

ـ ما هذا الذي يقال حول تلال الدوق؟

أجاب باكو:

ـ لا شيء سوى الحقيقة: لقد حلّت ازمنة حديثة يا موسين ميليان.

ـ وأية حداثة هذه؟

ـ إن الملك راحل بموسيقاه إلى مكان آخر، وإنّي لاقول له: سفر سعيد.

خيّل لباكو ان الكاهن يحاوره لأنه لا يجرؤ على مناقشة والده، فأضاف:

ـ قل الحقيقة يا موسين ميليان، فانت تعرف، منذ ذلك اليوم الذي ذهبنا فيه إلى الكهـوف بزيت المسوح ونحن نفكّر في القضاء على هذا العار، وها قد سنحت لنا الفرصة.

ـ أية فرصة؟ ذلك لا يتمّ إلّا بالمال، ومن اين لكم المال؟

ـ من الدوق، يبدو أن يوم القديس مارتين قد حلّ بالنسبة إلى الدوقة.

ـ اصمت يا باكو. انا لا أقول ان الدوق مصيب دوماً، انه كائن بشري معرض للخطأ كما الآخرين، ولكن، في أمور كهذه لا بد من السير بقدمين من رصاص وان تتجنبوا بث اللغط بين الناس كيلا تثار الانفعالات الدنيئة.

جرى تعليق على كلمات الشاب في «الواجهة». قيل انه اعلن للخوري: «سنعمل السكّين في أجساد الملوك والدوقة والخوارنة، كما جرى لخنازير القديس مارتين!»

المبالغة من سمات «الواجهة».

شاع سريعاً خبر فرار الملك من اسبانيا، وكان وقع الخبر هائلاً على دون فاليريانو والخوري. أما دون غومير سيندو فقد أبى تصديقه وقال انه من ثرثرات الحذّاء.

مكث موسين ميليان اسبوعين في الخورية لا يغادرها، وينتقل إلى الكنيسة عبر باب الحقل عازفاً عن مخاطبة الناس.

أمّ الكنيسـة في أول يوم احد جمع غفير بغية معرفة ردّ فعل الكاهن على الأحداث، لكن موسين ميليان لم يتفوه بأدنى تنويه بالأمر. وتبعاً لهذا فرغ المعبد تماماً في يوم الأحد التالي.

صار باكو يلتقي بالحذّاء الصامت والمتحفظ.

وكان العلم ثلاثي الألوان يرفرف من أعلى دار البلدية وفوق باب المدرسة وقد احتجب عن الملأ كل من دون فاليريانو ودون غومير سيندو. أما كاستولو فقد تقصّد الالتقاء مع باكو ليعرض نفسه بصحبته. لكنه كان يرائي الطرفين فما ان يلتقي بالخوري حتى يبادره مسائلاً:

إلام سننتهي يا موسين ميليان؟

مستنداً على بعض الحيثيات أعلن دون فاليريانو انه يعتبر نتائج الانتخابات غير شرعية، فجرت انتخابات ثانية تخلّى خلالها والد باكو عن ترشيحه لصالح ولده، فتمّ انتخاب الشاب. صدر في مدريد قرار ينص على إلغاء «ملكيات السادة» ذات الأصول القروسطية وضمّها إلى البلديات. وعلى الرغم من ادّعاء الدوق بأن تلاله غير مشمولة بذلك التصنيف وافقت القرى الخمس على اقتراح باكو بالامتناع عن دفع الايجار ريثما يصدر حكم القضاء بالأمر.

وعندما مضى باكو ليعلم دون فاليريانو بقرارهم مكث هذا برهة يرمق السقف مداعباً خصلة من شعر زوجه المتوفاة، ثم رفض التبلّغ وطالب البلدية بتبايغه كتابة.

شاع الخبر في البلدة، وتردّد في الواجهة اقدام باكو على تهديد دون فاليريانو. جرت العادة على الصاق كل المواقف المحرجة بباكو، فهم يجبنون حيالها.

ان رواد الواجهة يكنّون الود لعائلة باكو ولعائلات اخرى ملاّكة مثلها لأن رجالها يعملون من الفجر وحتى افول الشمس. ونساء الواجهة يؤدين صلاة الأحد لكنهن يتمتعن كذلك للغاية عندما تنشد خيرونيما الأغنية التي تقول:

قال الخوري للمرأة

ان تضطجع عند قدميه.

لا أحد يعلم ما تخطط له البلدية في مصلحة سكان الكهوف، لكن الخيال لا يكف عن التحليق وآمال الفقراء تكبر. لقد تصدى باكو للمشكلة بجدية فائقة بل أنه لم تناقش في اجتماعات البلدية مشكلة سواها.

ارسل باكو إلى دون فاليريانو قرار البلدية خطياً، ونقلها هذا الى الدوق، رب عمله. وسرعان ما جاء جواب الدوق البرقي كما يلي:

«آمر عناصري بحراسة ممتلكاتي وباطلاق النار على أي حيوان أو انسان يدخلها. يتوجب على البلدية نشر هذه التعليمات لتفادي الخسائر في الممتلكات والأرواح».

ما ان قرأ باكـو البرقية حتى اقترح على العمدة تسريح الحراس ومنحهم فرص للعمل في نقابة الري أو في الحقول وبأجور أعلى. كان عدد الحراس ثلاثة، وقد وافقوا جدّ مغتبطين. انتقلت بنادقهم إلى ركن من قاعة الاجتماعات، ودخلت القطعان التلال بلا عائق.

بعد مشاورات عديدة اجراها دون فاليريانو مع موسين ميليان غامر بدعوة باكـو إلى داره لتناول الطعام. كانت الدار كبيرة ومعتمة، ذات شرفات واسعة وبوابة كبيرة لدخول العربات.

كان دون فاليريانو قد قرر التصرف بتعقّل، فطفق يتحدث عن الدوق بإلفة واستخفاف مدركاً التهم التي يكيلها باكو حول امتناعه عن زيارة البلدة، وهو في هذا غير مصيب، فقد قدم مرات ثلاث في السنوات المنصرمة بغية الاطلاع على ممتلكاته، لكنه لم يبت في القرية بل في الأخريات المجاورة، وما زال يذكر الحدث الاستثنائي الذي طرأ بينما كان الدوق وزوجه يحاوران أكبر الحراس عمراً وقد وقف يستمـع اليهـما ممسكـاً قبعته بيديه. سألت زوجة الدوق عن كل فرد من عائلة الحارس، وعندما تطرّقت لولده البكر ـ كرّر دون فاليريانو جواب الحارس ـ:

ـ من؟ ميغيل؟ داعبي بيضا.. ميغيليكو فهو في برشلونة، ويكسب تسع بيستاس يومياً!

ضحك دون فاليريانو، وكذلك فعل باكو، ولكن يسرعان ما علا الجد سيماه وقال:

ـ قد تكون زوجة الدوق امرأة جيدة. لا علاقة لي بها، وقد سمعت عن الدوق ما له وما عليه، ولكن ليس لهذا أي شأن بقضيتنا.

قال دون فاليريانو.

ـ هذا صحيح. حسن، لندخل الموضوع، يبدو ان السيد الدوق مستعد للتفاوض معك.

ـ حول التلال؟

وافق دون فاليريانو بايماءة من رأسه، فأضاف باكو:

ـ لا مفاوضات حولها، لا وليس له سوى أن يرضخ للأمر.

لم ينبس دون فاليريانو ببنت شفة، فتجرأ باكو مضيفاً:

ـ يبدو ان الدوق «يدوزن» على الطريقة القديمة.

مكث دون فاليريانو صامتاً يرمق السقف، فأكمل باكو:

ـ اننا نغني هنا موالاً آخر.

تفوه دون فاليريانو أخيراً:

ـ تتحدث عن الرضوخ. من يخفض رأسه؟ لا يخفض رأسه سوى الكبش.

ـ والشرفاء، في حال هيمنة القانون.

ـ انني أرى.. لكن محامي الدوق يفكر بطريقة مغايرة، ثم ان هناك قوانين وقوانين.

سكب باكو لنفسه قدراً من النبيذ وهو يلفظ من خلل اسنانه: «بالاذن»، فأحس دون فاليريانو بالاهانة لتماديه في ممارسة حريته، لكنه ابتسم وقال: «تفضل» بعد ان انتهى باكو من ملء كأسه.

أعاد باكو السؤال:

ـ وكيف يريد الدوق ان يتفاوض؟ لا حل أمامنا سوى تنازله عن التلال وان يكف عن التفكير في هذا الموضوع.

كان دون فاليريانو يرمق كأس باكو ويمسد ببطء شاربين كثر تكويره لهما فصارا كالمستعارين.

همس باكو:

ـ سنرى أية وثائق لدى الدوق بخصوص التلال، هذا ان كانت بحوزته وثائق ما.

كان دون فاليريانو ساخطاً:

ـ وتخطىء بظنك هذا أيضاً، أنها قرون عديدة من الاستثمار، ولهذا اهميته. لا يمكن الغاء ممارسة دامت اربعمائة عام في يوم واحد. ان التلال ليست زجاجات نبيذ ـ أضاف ما ان رأى باكو يسكب قدراً آخر من النبيذ ـ وانما قضاء، قضاء ملكي.

ـ اعتقد ان ما صنعه الانسان يستطيع الانسان محوه.

ـ أجل، لكن ثمة فارق بين انسان وانسان.

عارض باكو بايماءة من رأسه وقال راشفاً من كأسه الثانية ومطقطقاً بلسانه:

ـ حول هذه القضية، قل للدوق ان يأتي بنفسه ليدافع عن حقوقه ان كانت له حقوق. ولكن ليجلب معه بندقية جديدة لأن بنادق الحراس صارت بحوزتنا.

ـ باكو! إنني لا أصدق! من كان ليتصور ان امرأ يملك حقلاً وبغلين قادر على التفوه بمثل هذا؟ ما عاد في هذا العالم ما يذهلني.

انتهت المقابلة. أبلغ دون فاليريانو الدوق بنتائجها فكرّر هذا أوامره، لكن مدير الأعمال، المحاصر بين نارين كان عاجزاً عن الاتيان بحركة، فقرر مغادرة البلدة بعد ان قابل موسين ميليان وحكى له ما حدث، عبّر عن وجهة نظره وقال ان ثرثرات واجهة الشمس هي التي تحكم البلدة، **وكال لباكو** التهديد والسباب مشيراً مراراً إلى قصة الزجاجة والكأس، فيستمع اليه الخوري حيناً وآخر يكف عن ذلك.

هزّ موسين ميليان رأسه بأسى وهو يتذكر كل هذا في الخورية. عاد القندلفت ليستند على اطار الباب، ولأنه عاجز عن الركون ساكناً راح يفرك جزمة بأخرى ويذكر القصيدة رامقاً الخوري:

أربعة ساقوه
داخل المقبرة.
ايتها الامهات، يا من لكنّ ابناء
ليحفظهم الله اصحاء
والملاك الحارس المقدس.

تروى القصيدة بعد ذلك قصة آخرين ماتا في اليوم ذاته، لكن الصبي نسي الاسماء. لقد قتلوا جميعاً في تلك الأيام، لكن القصيدة تقول: «اعدموا».

يذكر موسين ميليان كيف ضعف ايمان دون فاليريانو في الآونة الأخيرة. اعتاد القول بأن إلهاً. يسمح بحدوث ما يجري لا يستأهل الاهتمام، فيستمع اليه الخوري منهكاً.

اهدى دون فاليريانو منذ سنوات خلت محراب المسيح سياجاً من الحديد، وتحمّل الدوق تكاليف اصلاح القبة مرتين، وما كان موسين ميليان يوماً ناكراً للجميل.

سرت اقاويل في الواجهة مؤداها ان ايجار المراعي الذي تحصّله البلدية سيوظف لتحسين ظروف الحياة في البلدة. كانوا يباركون باكو الطاحوني، واكثر الاطراء تردداً بين العجائز كان حول «خصيتيه القابعتين في المكان المناسب».

بدأو في القرية المجاورة حفر قناة غايتها ايصال مياه الشرب إلى الساحة، لكن لدى باكو الطاحوني اهداف اخرى، فمياه الشرب تصل ساحة بلدته. ان الكهوف لا تغيب عن ذهنه ويتخيل ساكنها محتضرين بين حشرجات، دون نور أو نار أو ماء، حتى انهم يفتقدون هواء التنفس.

كانت ضمن ممتلكات الدوق صومعة يحتفل بعيدها في يوم من أيام

الصيف، فيقوم الناس بزيارتها ويقدمون الهبات للكاهن، وتتكفل البلدية بدفع اجور القداس. لكن العمدة تجاهل المناسبة في ذلك العام، وكذلك فعل الفلاحون، مما دفع موسين ميليان إلى استدعاء باكو فبلّغه هذا انه قرار اتخذ في البلدية.

ـ أتقول البلدية؟! وماهي البلدية؟ ـ سأل الكاهن ساخطاً.

شعر باكو بالأسى إذ رأى موسين ميليان على تلك الحال، فاقداً السيطرة على نفسه، وأوضح له ان الصومعة كانت من ممتلكات الدوق وبما ان الناس يعادونه فمن البدهي ألاّ يبالوا بزيارتها.

قال موسين ميليان في لحظة انفعال:

ـ ومن تكون انت لتقول للدوق انك ستنتظره مسلحاً ببندقية حارس إذا ما وطأ التلال؟! الا تدري ان هذا تهديد اجرامي؟!

باكو لم يتفوه بذلك، ودون فاليريانو كاذب، لكن الخوري أبى الاستماع إلى حجج باكو. كان الحذاء في تلك الأيام عصبي المزاج شارده، وكان يجيب من يستوضحه:

ـ عندي حدس.

كانوا يسخرون منه في الواجهة، لكن الحذاء يقول:

ـ إذا وقعت الخابة على الحجر او سقط الحجر على الخابة فالويل للخابة.

وما كانت تلك الكلمات الغامضة لتجلي الامر. لقد امضى الحذّاء عمره منتظراً ذلك التغيير، وما ان حلّ حتى تملّكته البلبلة، فهو لا يدري ما يفكر به او يفعله. لقد عرض بعض اعضاء المجلس البلدي توليه منصب قاضي الري لمعالجة مشاكل ومنازعات استغلال الساقية الرئيسية، لكنه اجاب:

ـ شكراً. لكنني اتبع المثل القائل: الحذاء إلى احذيته.

وراح يتقرب من الكاهن شيئاً فشيئاً، فلا بد له من المعارضة أياً كانت الحال، ولا أهيمة للنظام أو اللون.

رحل دون غومير سيندو إلى عاصمة المحافظة، الأمر الذي أزعج الكاهن كثيراً وجعله يردد:

ـ كلهم يرحلون، أما انا، حتى ولو تيسر لي، لما رحلت. انه فرار.

وبدا أحياناً وكأنه يحاول تفهم باكو، لكنه سرعان ما يسترسل في الكلام عن انعدام الاحترام بين سكان القرية وعن حجم التضحية التي يقدمها، فتنتهي نقاشاته مع باكو النهاية ذاتها: أنه قربان، فيضحك باكو قائلاً:

ـ لكن أحداً لا يبغي قتلك يا موسين ميليان.

ضحكة باكو تحيل الخوري مسعوراً لكنه يسيطر على أعصابه بصعوبة.

ما ان بدأ الناس ينسون دون فاليريانو **ودون غوميز سيندو** حتى فوجئت القرية بعودتهما.

أخذا يتصرفان بثقة في النفس، ويجتمعان مع الكاهن كل يوم، مما حدا بالسيد كاستولو إلى التقرب منهما بفضول، لكنه اخفق في استجلاء الأمر فهو لم يعد أهلاً للثقة.

في يوم من شهر تموز غادر عناصر الحرس المدني* القرية استجابة لأوامر تقضي ـ حسبما قالوا ـ بالتجمع في مكان ما ستقصده كل عناصر المنطقة. خالج اعضاء المجلس البلدي شعور بخطر يحيق بهم، لكنهم عجزوا عن تحديد كنهه.

قدمت إلى القرية مجموعة من ابناء الذوات يحملون الهراوات، يتمنطقون المسدسات، ويطلق بعضهم صرخات هيستيرية. لم يسبق لأهل القرية ان شاهدوا اناساً معدومي الحياة كهؤلاء، وقد اعتادوا اطلاق لقب «النواعم» على الحليقين امثالهم. لكن أول ما أقدم عليه هؤلاء النواعم كان اشباع الحذّاء ضرباً لم يعفه منه حياده. ثم قتلوا ستة فلاحين بينهم أربعة من ساكني الكهوف وتركوا جثثهم على حافة الطريق التي تصل القرية بالواجهة، وبما ان الكلاب جاءت لتلعق الدماء فقد كلّفوا احد حراس الدوق السابقين بمهمة ابعادها.

---

* ـ بمثابة الشرطة ـ م ـ.

ليس ثمة من يسأل، ليس ثمة من يفهم، ليس ثمة حرس مدني يمنع الغرباء من الاسترسال في غيّهم.

أعلن موسين ميليان في الكنيسة ان «بالغ القدسية» سيعرض على الملأ ليلاً ونهاراً، ثم عبّر عن استنكاره لدون فاليريانو- الذي عينه السادة النواعم عمدة للقرية - لأنهم اقدموا على قتل الفلاحين الستة دون ان يمنحوا فرصة الاعتراف بذنوبهم.

كان الخوري يمضي نهاره وقسطاً من الليل في الصلاة. أما الضيعة فمأخوذة بالهلع، ولا أحد يعلم ما يتوجب عليهم فعله.

خيرونيما تمضي وتؤوب أقل هذراً من عادتها، لكنها كانت تعمد في الواجهة إلى شتم السادة النواعم وتطالب بانزال أشد العقوبات بهم. ما كان هذا يمنعها - ما ان ترى الحذّاء - من أن تحدّثه عن عصي التلويح والقياس وأشياء أخرى تومىء كلها إلى «العلقة»، راحت تسأل عن باكو، ولكن مامن شاف للغليل. لقد اختفى، ويبحثون عنه، هذا كل شيء.

في اليوم التالي لسخرية خيرونيما من الحذاء اكتشف هذا في الطريق إلى الواجهة محطّم الجمجمة. هرعت المرأة المسكينة وغطّته بشرشف ثم حبست نفسها في دارها لأيام ثلاثة، عادت بعدها لتطل على الطريق بين الحين والآخر، حتى انها دنت من الواجهة حيث استقلبت باللوم والشتائم، الأمر الذي اغرقها بالبكاء، وهو ما لا عهد لها به، وجعلها تصرخ انها تستحق الرجم كما الثعابين.

بعد أيام معدودة عاودت خيرونيما تهريجها في الواجهة بخليط اعتادت عليه من الايمان والتهديد.

لا أحد يدري متى يقتلون. أعني انهم كانوا يعرفون بوقوع الجريمة ولكن ما من شاهد لها. انهم يقترفونها ليلاً، ثم تبدو القرية نهاراً في هدوء مطبق.

اكتشفت ما بين القرية والواجهة أربع جثث اخرى، هي جثث اعضاء المجلس البلدي. كثير من سكان القرية متواجدون خارجها لانشغالهم بالحصاد،

ما كان بينهن من تدرك ما هي روسيا، وكن جميعاً يفكرن ببغلة الطاحونة الشهباء، فذلك هو اسمها. لكن هذا يفتقد المنطق، كما يفتقده ما يجري في القرية، دون أن يتجرأن برفع أصواتهن يشرعن بالنميمة:

ـ لا كاستولا ثؤلولة جرداء!

ـ انها بلهاء.

وما كانت خيرونيما لتقصر:

ـ انها عقرب بصلي.

ـ انها بيضة قمل دهنية.

ـ دارها ـ تضيف خيرونيما ـ يعبق فيها رائحة الموقد الذي بالوا عليه.

تناهى إلى سمعها ان سادة المدينة النواعم سيقتلون كل من صوّت ضد الملك، وهي تتمتع بطاقة سحرية وخارقة للطبيعة في ازمنة الكوارث فتشتم رائحة الدم في كل مكان. لكنها، على الرغم من ذلك، ما ان تسمع في الواجهة قرع الأجراس وصوت سندان الحداد الذي يرافق القرع حتى تستسلم للرقص هزّا وتلويحاً بفستانها، ثم تكيل اللعنات مرة اخرى وتنعت غومير سيندا بذات السيقان القذرة. طفقت تسعى لمعرفة ما جرى لباكو الطاحوني، لكنهم لا يعلمون سوى ان البحث عنه جار، فتعلّق خيرونيما واثقة:

ـ لن يمسكوا بذلك الشاب الحلو ببساطة.

وتشير مرة أخرى إلى ما شاهدته كلما غيّرت اقماطه رضيعاً.

لكن نساءهم ما برحن يقدمن إلى الواجهة لمعرفة اسماء الصرعى. كن يؤدين الصلاة احياناً، ثم يشتمن باصوات وجلة زوجات الأغنياء وبخاصة لافاليريانا ولا غوميرسنيدا، بينما ترى خيرونيما ان زوجة كاستولو هي اسوأهن لأنها سبّبت قتل الحذاء.

قالت احداهن:

ـ هذا ليس صحيحاً. قتلوه لأنه ـ قالوا ـ عميل لروسيا!

يتذكر الآن موسين ميليان فوضى تلك الأيام وينتابه شعور بالعار وارتباك محيّر.

طلقات نارية في الليل، دماء، انفعالات شريرة، ثرثرات، سفاهة الغرباء الذين بدوا، على الرغم من كل شيء، مؤدبين. كان دون فاليريانو يعبّر عن اسفه لما يجري ويشجع في الوقت ذاته سادة المدينة على قتل المزيد من الناس.

لا يغادر باكو بال الكاهن. مكث والده في تلك الأيام في داره، بعد ان كفله كاستولو بيريث بقوله انه «قمح نظيف»، ثم ان الاثرياء ما كانوا ليجرؤا على المساس به قبل القضاء على ولده.

ما من احد سوى الوالد يعرف اين يختبىء، فمضى اليه موسين ميليان وقال:

ـ ان ما يحدث امر مروع ولا معنى له.

انصت والد باكو بصمت، كالح الوجه بعض الشيء، وتابع الخوري حديثه. الفى الزوجة الشابة التي غدت كالظل، تروح وتجيء دون ان تضحك او تبكي. ليس ثمة من يضحك او يبكي في القرية، ويرى موسين ميليان ان الحياة ستصبح مرعبة إذا كفّ الناس عن الضحك والبكاء.

وباحدى تلك الايماءات التي تتطلبها الصداقة احياناً لتبيان استحقاقها، بدا موسين ميليان وكأنه علم كل شيء عن مخبأ باكو. ترك انطباعاً وكأنه يدري، ولا بد للوالد وللزوجة من تقديم الشكر له تقديراً لصمته. ما قال الخوري صراحة انه عارف، لكنه ترك انطباعاً يوحي بذلك، وتشاء سخرية الأقدار ان يسقط والد باكو في ذلك الشرك. حدّق في موسين ميليان مفكراً بالضبط بما اراد الخوري ان يفكر به: «مادام يعلم ولم يبح بالسر فهذا يعني انه انسان شريف كامل الصفات»، وحسّن هذا التفكّر من حالته النفسية.

كشف الوالد خلال المحادثة عن مخبأ باكو ظاناً أنه لا يبوح للخوري بجديد.

تلقى موسين ميليان المعلومة التي اثّرت فيه بشدّة وقال لنفسه: «آي، كان من الأفضل ألاّ يقولها لي، لم يتوجب عليّ معرفة انه يختبىء في لاس باردیناس؟».

شعر موسين ميليان بالهلع جاهلاً الدواعي بالتحديد. غادرهم سريعاً وتمنى ملاقاة الغرباء المسلحين ليبرهن لنفسه عن ثباته ووفائه لباكو. وهكذا كان، وعبثاً راح القائد واصدقاؤه يجاذبونه أطراف الحديث طوال العصر. في تلك الليلة، وبعد ان ادى موسين ميليان الصلاة، رقد مغموراً بسكينة لم يعهدها منذ زمن طويل. في اليوم التالي عقد اجتماع في مبنى البلدية ألقى فيه الغرباء خطابات واطلقا الهتافات، ثم احرقوا العلم ثلاثي الالوان* واجبروا سكان القرية على الحضور لالقاء التحية بالذراع الممدودة، حسبما امر القائد. كان هذا رجلاً تنمّ الطيبة عن سيماه ويستخدم نظارات قاتمة، ومن الصعب تصوره يقتل احداً ما.

وجد الفلاحون ان اولئك الرجال الذين يقومون بايماءات لا طائل تحتها ويجمعون كعابهم ويطلقون الهتافات يعانون دون ريب من علّة في رؤوسهم، لكن رؤيتهم لموسين ميليان ولدون فاليريانو جالسين في منصة الشرف بلبل افكارهم، فاضافة إلى الجرائم المقترفة جلّ ما انجزه هؤلاء هو اعادة التلال للدوق.

بعد يومين من هذا التقى دون فاليريانو الخوري في مسكنه. **كان يضع ابهاميه** في جيبي صدريته ويرمق الكاهن في عينيه عندما قال:

ـ انني لا اضمر الأذى لأحد، ولكن أليس باكو اخطرهم؟ ما أريد قوله أيها السيد الخوري هو أن آخرين صرعوا لأسباب اتفه بكثير.

فيقول موسين ميليان:

ـ دعه بسلام. لأية غاية تسفك دماء اخرى؟

وكان يروق له الايحاء بأنه عليم بمكان اختبائه، مظهراً للعمدة قدرته على النزاهة والوفاء.

---

* العلم الجمهوري. م.

والحق انهم كانوا يبحثون عن باكو باصرار ودونما كلل، حتى انهم جعلوا كلاب الصيد تشتم ثيابه واحذيته القديمة.

وصل في تلك اللحظة القائد ذو الوجه الطيب والنظارات القاتمة برفقة اثنين من رجاله وقال لدى سماعه الكاهن.

ـ لا نريد ضعاف العقول. اننا نطهّر البلدة، ومن لا يقف معنا يكون ضدنا.

قال موسين ميليان:

ـ أتعتقدون انني ضعيف عقلياً؟

فعاد الجميع إلى الرشد. قال القائد:

ـ تّمت الاعدامات الأخيرة دون ان نحرم المحكومين شيئاً، حتى انهم تمتعوا بمسحة المرضى. فما مبّرر شكواك؟

تحدث موسين ميليان عن بعض الرجال الشرفاء الذين كانوا من الضحايا، وعن ضرورة ايقاف ذلك الجنون.

ـ قل الحقيقة ـ بادره القائد وهو يشهر مسدسة ويضعه على الطاولة. ـ انت تعرف اين يختبىء باكو الطاحوني.

انشغل موسين ميليان بالتفكير فيما إذا كان القائد قد اخرج مسدسه ليهدده به ام ليخفف عن خاصرته العبء لا غير، فهي حركة لاحظها مراراً.

فكّر بباكو الذي عمّده، الذي زوّجه، تذكر في تلك اللحظة تفاصيل صغيرة وتافهة، كطيور البوم الليلية ورائحة الحجل المكمور. لعل حياة باكو معلقة بالجواب. انه يحبه كثيراً، لكنه لا يكنّ المشاعر من أجل الانسان بحد ذاته، بل من أجل الإله. عاطفته اسمى من الموت والحياة، وليس بمقدوره ان يكذب.

ـ هل تعرف أين يختبىء؟! ـ سأل الأربعة في اللحظة ذاتها.

أجاب موسين ميليان خافضاً رأسه. انه الايجاب. يمكن ان يكون ايجاباً. وعندما ادرك ذلك كان الوقت قد تأخر. طلب عندئذ ان يعدوه بأنهم لن يقتلوه،

يستطيعون محاكمته وسجنه إذا كان مذنباً في شيء، ولكن ألاّ تقترف جريمة اخرى. فوعد القائد طيب السيماء بذلك.

أفشى موسين ميليان بمخبأ باكو، ثم همّ بالشهادة في صالحه لكنهم ما استمعوا اليه.

خرجوا مسرعين وتركوه وحيداً، متقززاً من نفسه ومغموراً في الآن ذاته بشعور من التحرر، فبادر إلى الصلاة.

جاء السيد كاستولو بعد انصرام نصف ساعة ليعلمه بنهاية الواجهة لأن سادة المدينة اطلقا رشقتين من بنداقهم الآلية فسقطت بعض النسوة صريعات وهربت الاخريات صارخات مخلفات آثار الدم كسرب من الطيور بعيد رشقات الخردق. كانت خيرونيما بين الناجيات، وعندما أعلمه بهذا أضاف: ـ انت تعلم ان العشب الضار. .*

رفع الخوري يديه ليمسك برأسه الشاحب بعد ان رأى كاستولو يضحك، وتساءل هلعاً: «على الرغم من كل شيء هذا الرجل لم يش بمخبأ احد، لهذا لا يعتوره اثر».

عاد إلى صلاته بينما تابع كاستولو حديثه واعلمه ان احدى عشر او اثني عشر امرأة قد جرحن، إضافة للواتي قتلن في الواجهة، وبما ان الطبيب في السجن فلن يكون شفاؤهن بالأمر اليسير.

آب القائد في اليوم التالي فارغ اليدين. كان ناقمًا، وحكى ان الفار استقبلهم بطلقات نارية ماإن اقتربوا من لاس باردیناس، فبحوزته احدى بنادق حرّاس الاحراش. ان الدنو من لاس باردیناس مغامرة بالحياة.

طلب من الخوري ان يذهب للتفاوض مع باكو، فقد جرح اثنان من رجال الكتائب ولا يرغب بتعريض آخرين للخطر.

---

* ـ اشارة إلى المثل الشائع: «العضب الضار لا يفنى ابداً» ـ م ـ.

كفت الأجراس عن القرع بضربات ثلاث أخيرة، حادة ومتباعدة، فاستمر رنينها لفترة في الفضاء.

قال السيد كاستولو:

ـ مع بالغ الاحترام، اود دفع تكاليف القداس يا موسين ميليان.

قالها وهو يدخل يده في جيبه، لكن الخوري رفض ذلك وعاد ليأمر القندلفت بالخروج ليستطلع ما إذا كان قد جاء بعض الناس.

خرج الصبي مردداً القصيدة كعادته:

على عوسج الطريق
تركت منديلها
تمرّ الطيور مسرعة
وبطيئة تمرّ السحب.

اطبق موسين ميليان عينيه مرة اخرى متكئاً بمرفقه الأيمن على مسند الكرسي وقد ارخى رأسه على يده، وعلى الرغم من انه فرغ من صلاته فقد تظاهر بمتابعتها كي يدعوه بسلام.

أخذ كل من دون فاليريانو ودون غومير سيندو يشرحان لكاستولو في الوقت ذاته وكل منهما يحاول اسكات الآخر، انهما ـ كذلك ـ يودان دفع تكاليف القداس.

رجع القندلفت مرتبكاً مهتاجاً لعجزه عن البوح بكل المستجدات دفعة واحدة. قال اخيراً:

بعد سنة من هذا يتذكر موسين ميليان الأحداث وكأنها جرت بالأمس. نظر إلى السيد كاستولو لحظة ولوجه الخورية ـ ذلك الذي اضحكته جرائم الواجهة آنذاك ـ اطبق عينيه وخاطب نفسه: «انا من افشى بمكان اختباء باكو، انا من ذهب ليفاوضه، والآن..». فرج عينيه وابصر الرجال الثلاثة قابعين قبالته. دون غومير سيندو يتوسطهم، وهو اعلاهم قامة. الوجوه الثلاثة ترمق الكاهن ببرود.

ـ ثمة بغلة في الكنيسة!

ـ ماذا؟

ـ لم يأت احد، لكن بغلة دخلت من مكان ما وهي تتمشى بين المقاعد!

خرج الثلاثة وعادوا ليخبروه انها ليست بغلة وانما حصان باكو الطاحوني الشريد دوماً في البلدة.

ان الجميع على علم بمرض والد باكو وبأن نساء الدار شبه ممسوسات، وان حيواناتهم واملاكهم القليلة الباقية مهجورة تماماً.

سأل الخوري القندلفت:

ـ هل تركت باب الرواق مشرعاً عندما خرجت؟

فأكّد الرجال الثلاثة ان الأبواب كانت موصدة. ثم اضاف دون فاليريانو مبتسمًا بمرارة:

ـ هذا فأل سيء.

راحوا يحسبون من ذا الذي يجرؤ على ادخال الحصان في الكنيسة. ذكر كاستولو اسم خيرونيما، لكن ايماءة ارهاق نمّت عن موسين ميليان وطلب منهم اخراج الحيوان من المعبد.

خرج الثلاثة برفقة الصبي. شكّلوا صفاً طويلاً مادّين اذرعهم وراحوا يحاصرون الحصان.

قال دون فاليريانو ان ذلك تدنيس وربما كان من الضروري تكريس المعبد من جديد. فرأى الآخران أن لاحاجة لذلك.

تابعوا حصارهم للدابة. على درابزون مذبح السيد المسيح ثمة شيطان معدني يبدو وكأنه يغمز بعينه، والقديس يوحنا يرفع اصبعه في مشكاته مشيراً إلى الركبة النسائية العارية. كان كل من دون فاليريانو وكاستولو منفعلين، يصرخان وكأنهما في اسطبل:

حا!! حا!!

يركض الحصـان في المعبـد على هواه. لو عادت واجهـة الشمس لسابق عهدها لوجدت النساء في هذا موضوعاً جديراً بالتداول.

عنـدما كان العمدة ودون غومير سيندو يحاصران الحصان قفز هذا بينهما منتقلاً إلى الجهة الأخرى ومطلقاً صهيله الفرح.

فأعلن السيد كاستولو فكرة لامعة:

ـ افتحوا مصراعي الباب كما نفعل عند الطواف، فهكذا سيجد الحيوان الطريق مفتوحة امامه.

هرع الصبي ليفعل ذلك متجاهلاً معارضة دون فاليريانو الذي لا يحتمل ان يبادر السيد كاستولو بشيء في حضرته.

عندما شرع المصراغان رمق الحصان مندهشاً تلك الحزمة من الضوء.. كانت تبـدو في العمق ساحـة القرية، موحشة، ودار طليت بالأصفر، واخرى مكلّسة ذات حواف زرقاء.

دعا القندلفت الحصان إلى الخروج. واخيراً، بعد ان اقتنع الحيوان ان ذلك المكان لم يكن مرتعه مضى خارجاً. ما زال القندلفت يترنم من خلل اسنانه:

طيور «الكوتوفياس» تقف
على صلبان المقبرة..

اغلقـوا الأبـواب فعـادت العتمـة إلى المعبد. القديس ميخائيل، عاري الذراع، يرفع السيف ليضرب التنين، ومن احدى الاركان تنبعث شرارات من قنـديل وضـع فوق سجل المعمودية. توجه الرجال الثلاثة للجلوس على المقعد الأول، بينما مضى القندلفت إلى مسكن الخوري، ركع لدى مروره بالمحراب، وغاب في الخورية:

ـ لقد خرج يا موسين ميليان.

كان الخـوري ما يزال غارقـاً في ذكريات سنة خلت. لقد اجبره الغرباء

المسلحون على المضي معهم إلى لاس باردیناس، وعندما وصلوا تركوه يقترب وحيداً.

ـ باكو! ـ صرخ بشيء من الخوف ـ هذا أنا. ألا ترى من أنا؟

مامن مجيب. تطل فوهة بندقية من احدى النوافذ، فعاود موسين ميليان الصراخ:

ـ باكو! لا تكن مجنوناً! يستحسن ان تسلّم نفسك.

صدر صوت من عتمة النافذة:

ـ سأسلّم نفسي ميتاً! ابتعد وليأت الآخرون إذا كانوا يجسرون!

اضفى موسين ميليان على صوته نبرة الصدق:

ـ باكو، من أجل أغلى ما تملكه، من أجل زوجتك، أمك، استسلم.

لم يصدر أي جواب. أخيراً سمع باكو يقول:

ـ أين والديّ؟ وزوجتي؟

ـ واين تريدهم ان يكونوا؟ في الدار.

أما مسّهم سوء؟

ـ لا. ولكن من يدري ما قد يحدث لهم إذا بقيت على حالك؟

تبع كلمات الخوري هذه صمت مديد. نادى موسين ميليان باكو باسمه، لكن ما من جواب. اطلّ باكوا أخيراً، كان يحمل البندقية بيديه، كان واهناً وشاحباً.

ـ أجب على اسئلتي يا موسين ميليان.

ـ أجل يا بني.

ـ هل قتلت البارحة أحداً ممن اتوا يأخذونني؟

ـ لا.

ـ أبداً؟ هل انت واثق؟

ـ ليعاقبني الله إذا ما كذبت. أبداً.

بدا وكأن هذا يحسّن الشروط. وما ان ادرك الخوري هذا حتى أضاف:

ـ لقد اتيت اليك شريطة ألّا يسيئوا اليك. اعني انك ستحاكم امام القضاة وتذهب إلى السجن إذا كنت مذنباً. لا أكثر.

ـ وهل انت واثق من هذا؟

تأخر الخوري عن الرد، وقال اخيراً:

ـ هذا ما طلبته أنا. وعلى أية حال فكّر يا بني بأهلك وبأنهم لا يستحقون المعاناة نيابة عنك.

جال باكو بناظريه فيما حوله صامتاً، وقال:

ـ حسن لقد بقيت لدي خمسون طلقة واستطيع بيع حياتي بسعر مرتفع. قل لهم ان يقتربوا دونما خوف. سأسلّم نفسي.

سمع من وراء سور صوت القائد:.

ـ فليلقي البندقية عبر النافذة!

أطاع باكو.

بعد لحظات كانوا يخرجونه من لاس باردیناس ويقودونه دفعاً وضرباً بأعقاب الأسلحة باتجاه القرية. كانوا قد اوثقوا يديه خلف ظهره. سار باكو يعرج بشدة. مشيته تلك وذقن خمسة عشر يوماً غير حليقة ترمي ظلالاً على محياه فتحيله مغايراً.

عندما أبصره موسين ميليان على تلك الحال لمس فيه شيئاً من الذنب.

حبسوه في سجن البلدية.

في ذلك المساء أجبر السادة الغرباء سكان القرية على التجمع في الساحة ثم ألقوا خطابات لم يفقهها أحد، وتحدثوا عن الامبراطورية والقدر الخالد والنظام والايمان المقدس، ثم تلوا نشيداً رافعين اذرعهم وقد مدّدوا أكفّهم، بعدئذ امروا الجميع بالعودة إلى بيوتهم وعدم مغادرتها حتى اليوم التالي تحت طائلة العقوبات الصارمة.

عندما فرغت الساحة اخرجوا باكو واثنين من الفلاحين من السجن

وقادوهم سيراً على الأقدام إلى المقبرة. وصلوا مع دنو الليل، وخلفهم، في القرية، صمت الخوف. فطن القائد عندما وضعوهم على الجدار إنهم لم يعترفوا فأرسل من يأتي بموسين ميليان.

استغرب الكاهن ان ينقلوه في سيارة السيدِ كاستولو، (وقدّمها هذا لخدمة السلطات الجديدة).

تمكنت السيارة من التقدم حتى مكان الاعدام، ولم يجرؤ الكاهن على الاستفسار، وعندما أبصر باكو لم تعتره أية دهشة وانما خيبة عظيمة.

اعترف الثلاثة. كان أحدهم رجلاً عمل في دار باكو، وردّد المسكين جاهلاً ما يقوله بصوت مسموع تارة واخرى لنفسه:

ـ انني اتهم نفسي يا ابتي.. انني اتهم نفسي يا ابتي..

خدمت سيارة السيد كاستولو كحجرة اعتراف. بابها مشرع والخوري في داخلها. كانت الضحية تركع على العتبة وما ان يلفظ موسين ميليان عبارة: Ego te absoluo *ـ حتى يعمد رجلان إلى نزع المعترف من مكانه ويأخذانه إلى الجدار ثانية.

كان باكوا آخر المعترفين.

ـ أراك في ساعة شؤم ـ قال للخوري بصوت لم يعهده موسين ميليان من قبل ـ لكنك تعرفني يا موسين ميليان. انت تعرف من أكون.

ـ أجل يا بني.

ـ لقد وعدتني انهم سيأخذونني امام القضاة لمحاكمتي.

ـ لقد خدعوني. ماذا استطيع أن أفعل؟ فكر، يا بني، بروحك، وانس، ما استطعت، سواها.

ـ لماذا يقتلونني؟ ماذا اقترفت أنا؟ نحن لم نقتل احداً. قل لهم انني لم اقترف شيئاً. انت تعرف انني برىء. إننا ابرياء نحن الثلاثة!

ـ أجل يا بني، كلكم ابرياء، ولكن. ماذا استطيع أن أفعل؟

ـ إذا كانوا يقتلونني لأنني دافعت عن نفسي في لاس باردیناس فليكن، أما الآخران فلم يقترفا سوءاً.

تمسك باكو برداء موسين ميليان وردّد: «لم يقترفا سوءاً، وسيقتلان! لم يفعلا شيئاً!» أكثر براءة منكم انتم الثلاثة.

ما ان سمع باكو هذه الكلمات حتى جمد اخرس. ولم يتفوه الخوري بشيء كذلك.

من بعيد، من القرية، يسمع عواء الكلاب وقرع جرس. لا يسمع منذ اسبوعين سوى ذلك الجرس، نهاراً وليلاً.

قال باكو بثبات وقنوط:

ـ إذن، إذا لم تكتب لنا النجاة حقاً، يا موسين ميليان، عندي زوجة، وهي حامل. ماذا سيكون مصيرها؟ ومصير والديّ؟

كان يتحدث كمن كاد يفقد التنفس فيجيبه موسين ميليان بالتسرع المجنون ذاته، من بين اسنانه. كانا يلفظان الكلمات احياناً بصورة يصعب معها تبينها، لكن بينهما علاقة تفاهم مضمر.

تحدث موسين ميليان مغمغماً بتهور حول مشيئة الاله وسأل في نهاية رثاء مشفق وطويل:

ـ هل تندم لذنوبك؟

ما كان باكو يفهمه. انه اول تعبير للخوري لا يدركه، وعندما كرّر رجل الدين السؤال بآلية وللمرة الرابعة، ردّ باكو ايجاباً باشارة من رأسه. في تلك اللحظة رفع موسين ميليان يده وقال:

ـ Ego te absoluo

بعد سماع هذه الكلمات حمل رجلان باكو من ذراعيه واخذاه إلى الجدار حيث كان الآخران. صرخ باكو:

ـ لم تقتلون الآخرين!؟ انهما لم يفعلا شيئاً!

كان احدهما من سكان الكهوف، كذاك الذي اخذوا له مسوح المرضى في احدى الأيام.

اضيئت مصابيح السيارة التي يستقلها موسين ميليان ودوّت رشقة النار في اللحظة ذاتها دون ان يلقي احد امراً بذلك أو يسمع أيها صوت.

سقط الفلاحان، لكن باكو، المضرج بالدم هرع إلى السيارة:

ـ موسين ميليان! انت تعرفني! ـ صرخ ممسوساً.

أراد دخول السيارة لكنه لم يقدر على ذلك. كان يلطخ كل شيء بالدم. أما موسين ميليان فيصلي صامتاً مطبق العينين.

وضع القائد فوهة مسدسه وراء اذن باكو فقال احدهم مستنكراً بتخوف:

ـ لا! ليس هناك!

سحبوه جرّاً وهو يردد بصوت خشن:

ـ اسألوا موسين ميليان. انه يعرفني.

سمعت طلقتان أو ثلاث. تبعها سكون تناهى فيه صوت باكو الهامس:

ـ هو وشى بي.. موسين ميليان.. موسين ميليان..

ما زال رجل الدين في السيارة فاغر العينين، سامعاً اسمه وعاجزاً عن اداء الصلاة.

ثمة من اطفأ مصابيح السيارة.

ـ هل انتهينا؟ ـ سأل القائد.

هبط موسين ميليان من السيارة، وبمساعدة القندلفت منح الثلاثة مسحة المرضى. ثم ناوله احدهم ساعة باكو (هدية زوجته في عرسهما) ومنديل جيب.

رجعوا إلى القرية. موسين ميليان يرمق السماء من خلال النافذة. لفّ الساعة بالمنديل وحفظهما بعناية بين يديه متذكراً الليلة التي مضى فيها برفقة باكو ليمنح مسحة المرضى في حارة الكهوف. انه ما يزال عاجزاً عن اداء الصلاة. مرّوا

بالواجهة الموحشة، بدت الصخور الكبيرة وكأنها رؤوس تميل إلى بعضها لتسّر امراً ما. تفكير الكاهن بالفلاحين القتلى، وبنساء الواجهة البائسات جعله يحس بازدراء عفوي يخجله ويعلنه مذنباً.

بعد وصوله إلى مسكنه لم يغادره لمدة اسبوعين سوى للقداس. كانت القرية برمتها صامتة وكالحة كأنها مقبرة هائلة. عادت خيرونيما إلى الخروج وصارت تذهب وحيدة إلى الواجهة محدثة نفسها بصوت مرتفع، ثم تطلق صراخها في الواجهة إذ يخيل إليها انهن لا يسمعنها، وفي احيان اخرى تصمت وتشرع بتعداد آثار الرصاص على الصخور.

ها قد مضى عام على تلك الأحداث. يبدو وكأنه قرن من الزمان. لكن مقتل باكو ما زال حياً في الذاكرة إلى درجة يخيل فيها لموسين ميليان ان ثيابه ما فتئت ملطخة بالدماء.

فرج عينيه وسأل القندلفت:

ـ تقول ان الحصان قد خرج؟

ـ أجل، سيدي.

ويردد في ذاكرته معتمداً على ساق، ثم على أخرى:

ولفظ النفس الأخير

لسيد المخلوقات. آمين.

ساعة ومنديل باكو ما زالا في خزانة الخورية. لم يجسر الكاهن على تسليمهما لأهل القتيل وزوجته.

خرج من مكمنه وشرع في اداء القداس.

لم يكن في الكنيسة سوى دون فاليريانو ودون غومير سيندو والسيد كاستولو.

موسين ميليان يرتل introibo ad altare Dei لكن ذهنه مشغول بباكو ويقول لنفسه: «انها الحقيقة. انا عمّدته وانا منحته مسحة المرضى. على الأقل ـ ليسامحه الله ـ ولد عاش ومات في غمار الكنيسة المقدسة الام». ثم خيلَ إليه ان اسمه

يتناهى اليه من بين شفاه المحتضر المرتمي على الأرض: «. . موسين ميليان. .».
ففكر وقد تنازعاه كل من الرعب والشفقة: «وهاأناذا أتلو لسلامة روحه قداس الجناز هذا، الذي يرغب أعداؤه دفع تكاليفه».

★★★

صدر عن الاهالي

١ ـ النباتات الطبية واستعمالاتها	د محمد العودات
	و د جورج لحام
٢ ـ المعتزلة والفكر الحر	د عادل العوا
٣ ـ ساعة الشؤم (رواية)	غابرييل غارسيا ماركير
	ترجمة صالح علماني
٤ ـ من الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان	د عبدالله حنا
٥ ـ والليل الذي يسكنني (شعر)	ممدوح عدوان
٦ ـ الفضاء هذا العالم الجديد	مجموعة من الباحثين
	ترجمة عيسى طنوس
٧ ـ السينما والقضية الفلسطينية	حسين العودات
٨ ـ أنابار (قصيدة طويلة)	سان جون بيرس
	ترجمة عبد الكريم كاصد
٩ ـ الفرسان الثلاثة (للاطفال)	سليمان العيسى
	وصلاح مقداد
١٠ ـ الداء السكري	د مية الرحبي
١١ ـ المرأة في حضارات بلاد الشام القديمة	علي القيم
١٢ ـ أزهار الكرز (أشعار يابانية)	نرجمة عدنان بعجاني
١٣ ـ وضاح وليلى (للاطفال)	سليمان العيسى
١٤ ـ القيامة والزبال (مسرحيتان)	ممدوح عدوان
١٥ ـ الذاكرة والغضب (رواية)	فائز الزبيدي
١٦ ـ حكاية الرجل الذي رفض البغل (قصص)	وليد معماري
١٧ ـ حكى لي الأخرس (سحريات صغيرة)	حطيب بدلة

تحت الطبع

ـ البطل الملحمي في روايات عبد الرحمن منيف	د أحمد جاسم الحميدي
ـ مسرح الريادة	عبد الفتاح قلعه جي
ـ سلسلة صغار الأهالي	(٤ قصص)
ـ زوبك (رواية)	عزيز نسين
	ترجمة عبد القادر عبد اللي

رامون خ. سيندر

ولد سنة ١٩٠٢ في تشالامیرا دي ثينكا. واصل دراسته في مدرسة دينية في (ريوس) بدأ الكتابة في الصحف، ثم درس الفلسفة والآداب في مدريد. وفي عام ١٩٢٩ ساهم في تشكيل المجموعة الفوضوية (اسبارتاكوس)، ثم في تأسيس اتحاد النقابات العمالية. وكان قريباً جداً من الحزب الشيوعي، رغم أنه لم يكن عضواً فيه.

حارب في القوات الجمهورية عام ١٩٣٦ كضابط ميليشيا ثم رئيس أركان فرقة عسكرية، ومثل الحكومة الجمهورية في مهمة بأمريكا الشمالية.

وفي شباط ١٩٣٩ ذهب إلى المنفى، وعاش في المكسيك حتى ١٩٤٢ حيث انتقل الى الولايات المتحدة. مدرساً في جامعتها.

يقيم حالياً في سان دييغو (كاليفورنيا).

الناشر

السعر ٢٥ ل. س